الدكتور مصطفى غالب

في سبيل موسوعة فلسفية
١٩

ديكارت

دار ومكتبة الهلال

منشورات
دار ومكتبة الهلال

الإدارة العامة: دار ومكتبة الهلال بئر العبد - شارع مكرزل

بيروت - ص.ب: ١٥/٥٠٠٣

مقدمة

يعتبر الفيلسوف الافرنسي ديكارت شيخ الفلسفة العصرية ، وفي طليعة الحكماء الذين أصابوا من الشهرة قسطا وافرا امتد أثره الى الأجيال الصاعدة ، وما تزال دراسة مصنفاته الى هذا اليوم من ضرورات كل ثقافة لها صلة بالعقل البشري •

وفلسفة ديكارت تنطلق من العقل الذي يسبر أعماق المعرفة والعلم ، ويشع بنوره الشمشعاني في عالم السموات والارض ، فيضيء للأجيال الصاعدة معالم الوجود والموجودات وينقلهم الى النفس الانسانية الخالدة المتفاعلة مع السعادة والمثالية والكمال الحقاني المطلق • فاذا استطاع الانسان

الناهد الى المعرفة والحكمة الوصول الى السعادة الفاضلة ، والمحافظة على رخائها ، وتوطيد دعائم القيم الخلقية في أحضانها ، تركزت دعائم السلام والطمأنينة بين الافراد والجماعات .

ومن فضل ديكارت هذا الفيلسوف الحكيم على الانسانية جمعاء أنه جسد المثل الأعلى للوجود الانساني ، وحقق وعي الانسان لذاته ولوجوده في هذا العالم ، بحيث يرد جميع آرائه الى منطلقات وأفكار واضحة بينة مثالية ، ويرفض بشمم واباء الاعتماد على الافكار والآراء الغير صحيحة والغير مقبولة لديه ولدى الناس جميعا ، وعبر عن منهجه العلمي الفلسفي بموجب قواعد يقينية تصل بالانسان العارف الى أعماق المعارف الصحيحة ، بدون عناء ، وتكفل لمن يراعيها بلوغ الحقيقة في العلوم العقلية .

وتتضمن قواعد المنهج الذي خططه ديكارت وسار عليه في سلوكه وأسلوبه العلمي الارشاد والتوجيه ، وتجنب المبادىء العامة ، والنظريات الصرفة ، وفق توجيه عملي صحيح للعقل ليسبر أعماق الرياضيات والطبيعيات والالهيات ، وعلم

الروابط الموحد ·

ولم يهدف ديكارت من وراء المنهج الذي طلع به على العلماء والحكماء والفلاسفة تطبيقه على علم واحد ، انما شاء أن يكون منهجه عاما يمكن تطبيقه على كافة العلوم ، وهذا ما يشير اليه عنوان كتابه « المقال في المنهج لاحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم » · فان الذهن كما يرى ديكارت اذا اعتاد مطالب المنهج الصحيح استطاع أن ينقلها الى مجالات أخرى غير العلوم الرياضية ، واستطاع أن يتصور امكان الرياضيات الكلية ·

وربما يكون هذا الرأي ليس سوى محاولة وهمية خيالية ، اذ أنه من المحال رد كل شيء الى الحساب ، وتحويل المشكلات الاخلاقية والأمور الميتافيزيقية الى معادلات جبرية ، ولكن من الممكن حسب رأي ديكارت أن تعالج المشكلات المختلفة معالجة رياضية ، وليس الحساب في الحقيقة الا الأداة التي يستعملها علم الحساب أو علم الجبر لحل المشكلات الخاصة بهما · والذهن الذي ينحو نحو الحساب ، لحاجته اليه في ظرف من الظروف ، ليس ملزما مع ذلك أن يستعبد نفسه للحساب ·

واذا كان للعلوم الرياضية يقين لا نزاع فيه فيقينها آت لا من طرائق الحساب التي تعمد تلك العلوم اليها • بل من البداهة التامة ، بداهة المعاني التي تصطنعها ، ومن الترتيب الذي يجري عليه تسلسل تلك المعاني •

وحتى نتمكن من اضفاء على أي علم يقينا يساوي يقين علم الحساب أو علم الهندسة ، يجب أن لا نشتغل الا بالمعاني الواضحة المتميزة ، وهي التي مضمونها بديهي تام البداهة ، وأن نرتب جميع معانيها ، أي أن ننظمها في نسق خاص ، بحيث يكون كل معنى منها مسبوقا بجميع المعاني التي يستند اليها ، سابقا لجميع المعاني التي تستند اليه •

ولا بد لنا منطرح الافكار الصادرة عن السلطات أيا كانت ، فلسفية أو اجتماعية أو سياسية أو دينية ، لأنها في غالب الامر أشد الافكار ميلا مع الهوى وأكثرها متابعة للنزوات الطارئة وأبعدها عن مرتبة اليقين ، وما علينا الا العزوف عن الآراء التي تعشقها الجماهير ، لأن ليس ينفعنا في تمييز الحق من الباطل في الآراء والافكار العقلانية

أن نحسب الاصوات لكي نتبع ما يحوز منها أكبر عدد ، فان اجماع الكثرة من الناس كما يرى ديكارت لا ينهض دليلا يعتز به لاثبات الحقائق التي يكون اكتشافها عسيرا • وليست شهادة التجربة الحسية الخداعة الا من الأمور الواجب عدم التقيد بها اذ من الممكن أن تخدعنا دائما ، ما دمنا لا نجد لها ضابطا يوثق به ، ويعتمد عليه •

والواجب العملي الصحيح يتطلب منا أو بالأحرى يفرض علينا طرح الأساليب المعهودة في منطق أرسطو الذي شاع في القرون الوسطى ، وتلك الأقيسة المنطقية التي تفرض الشيء الذي يطلب البحث عنه ، والتي لا تصنع شيئا أكثر من أن تعرقل حركة الذهن الطبيعية ، لأنها تديره دورانا آليا ، وتعفينا من التفكير ، ولا تعيننا على اكتشاف الحق •

وما دمنا قد استبعدنا من اعتبارنا آراء السلطات ، والافكار المشهورة ، وشهادة الحواس ، وطرائق الاقيسة القديمة ، فلم يبق الا أن نحلل طرائق ذينك العلمين الرياضين اللذين يقر جميع الناس بما لهما من متانة واحكام، ولنحلل طرائقهما،

لا بقصد تطبيقهما كما هما على مسائل لا تحتمل ذلك التطبيق ، بل لكي نستخلص منهما أهم مـا يصنعه الذهن في جميع خطواته المنهجية ، ولنتعرف على ما اختص به الذهن من أفعال هي بمثابـة الشروط العامة الكلية التي تسود جميع الطرائـق الحسابية أو الهندسية ، باعتبارها أفعال شديـدة البساطة ، قليلة العدد • كما يلاحظ ديكارت ان جميع الافعال الذهنية التي نستطيع بها أن نصل الى معرفة الاشياء دون أن نخشى الزلل عبارة عن فعلين اثنين هما الحدس والاستنباط •

بيروت في ١٩٧٩/٥/٢٥

الدكتور مصطفى غالب

سيرة ديكارت وحياته :

ولد رينيه ديكارت في ٣١ مارس من عام ١٥٩٦ بمدينة لاهاي باقليم التورين بفرنسا على بعد نحو ٣٠٠ كيلومترا من الجنوب الغربي لباريس وعلى بعد ٥٠ كيلومترا من مدينة تور عاصمة التورين.

والده يواكيم ديكارت كان مستشارا في محكمة بريتاني الاقليم الواقع في الشمال الغربي من التورين . أما أمه فهي جان بورشار ، ابنة حاكم مقاطعة بواتييه في جنوب تور . ينتمي ديكارت الى سلالة فرنسية بورجوازية عرفت بنبلها وشرفها وعلو منزلتها في طول البلاد وعرضها .

ولم يكن يواكيم وحيد أبويه بل ولد من هذا الزواج صبي وبنت كل منهما أكبر من يواكيم .

ثم ولد ابن آخر بعد ميلاد يواكيم بأكثر من سنة ولم يعش هذا الابن الا أياما بعد وفاة والدته •

ويبدو أن يواكيم ديكارت قد فقد والدته وهو لم يجاوز سنته الأولى بكثير ويقال أن والدته ماتت بعد مولده بثلاثة عشر شهرا ، فكفلته جدته وقامت على تربيته هي واحدى المرضعات التي عنيت به أفضل العناية • وظل ديكارت مخلصا لهـا طـول حياته • ومن الملاحظ أن ديكارت قد حرص على الاحتفاظ بأخبار والدته وساعاتها الاخيرة ، كونه أشار الى وفاة والدتـه في خطـاب كتبـه للأميرة اليصابات وهو في سن الخمسين (١) •

ولأسباب لا يعلمها أحد أخطأ ديكارت في ايراد تلك الاخبار وتفسيرها • فهو اذ يرشد صديقتـه الأميرة اليصابات الى علاج نفسي لمرض أصابهـا يذكر لها أنه اتبع نفس العلاج في سعال لازمه حتى سن العشرين وكان قد ورثه عن مرض رئوي ألم بوالدته أثناء حملها به وتوفيت عنه بعد ذلك الميلاد بأيام •

---

(١) خطاب ديكارت الى الاميرة اليصابات في مايو او يونيه سنـة ١٦٤٥ ق٠ل ص ٩٤٨ •

ولا ندري لماذا يقارن ديكارت مرض الاميرة بمرض والدته الا أن تكون تلك المقارنة دليلا على ما يكنه للاميرة من مودة عميقة • وأغرب من هذا أيضا أن يخطيء على النحو المذكور بصدد موت والدته الذي أعقب ميلاده ، بأكثر من سنة والذي أعقب مباشرة ميلاد ابن جديد لم يعش طويلا • وربما أخفي أمر هذا الميلاد على ديكارت كما أخفيت عليه تفاصيل ذلك الموت • ولعل ديكارت في اعتقاده هذا شاء أن يحمل نفسه تبعة وفاة أمه ، ولعله أراد في نفس الوقت أن يجمع بين وفاته لأمه التي لم يعرفها ، وبين صداقته لتلك الأميرة التي حلت في نفسه محل الشقيقة والأم •

ويحدثنا ديكارت في السنين الاخيرة من حياته عن ذكريات طفولته ، وعن الريف الذي كان يعيش فيه ، وعن عادات المزارعين ، وعن جمال القرى الفرنسية التي لا يعدلها في نظره شيء مما زاره في العالم ، بل لا تعدلها تلك العزلة الهولندية التي اختارها لنفسه في العشرين سنة الاخيرة من حياته (١) •

---

(١) خطاب ديكارت الى براسيه في ١٦٤٩/٤/٢٣ ل ٥• ١٠٧٧ •

ويروي ديكارت لصديقه شانو حادثا من أحداث طفولته يؤيد به رأيه في أن العاطفة وليد أحداث الماضي البعيد وعاداته . لقد أحب ديكارت وقتها فتاة من عمره كانت حولاء ، ثم أصبح بعد ذلك ميالا الى كل فتاة أو امرأة حولاء (١) .

وتلك الذكريات التي شاء ديكارت أن يكتبها لأصدقائه انما هي دليل واضح على أن الرجل لم يغض الطرف عن ماضيه ولم يمقته . وان أخطأ في تفاصيله أو تفسيره ، وان كان خياله هو الذي سجل ذلك الماضي فلقد كان خيالا سارا محبوبا لنفسه .

حياته الدراسية الأولى :

يصاب الباحث بخيبة أمل كبيرة عندما يحاول ذكر وقائع دقيقة خاصة بحياة هذا العبقري الكبير، والفيلسوف الحكيم ، نظرا لوجود اختلاف بصدد ميعاد تاريخ دخوله المدرسة لأول مرة . فنلاحظ أن مؤرخه بايية يشير الى أنه دخل مدرسة لافليش للآباء اليسوعيين في نيسان عام ١٦٠٤ أي بعد أشهر قلائل من افتتاح تلك المدرسة . ولكن الدقة

(١) خطاب ديكارت الى شانو في ١٦٤٨/٨/٦ ل ٥٠ ١٠٣٧ .

التاريخية تجعل أحدث مؤرخي ديكارت يسجلون دخوله المدرسة في عام ١٦٠٦ · ومما يدعم هذا الرأي أن خروجه من المدرسة كان عام ١٦١٤ على وجه التأكيد ، ولم يكن من المقبول أن يبقى بها أكثر من ثماني سنوات ، وذلك لعدم احتمال رسوبه ، أو اعادته لسنة من السنوات لا سيما أن مؤرخيه لم يذكروا تعطل دراسته مدة سنة كاملة لسبب من الأسباب ·

ويحدثنا ديكارت نفسه بصراحة ووضوح عن الدراسة والبرنامج العلمي ومدى افادته من تلك المدرسة الابتدائية في « المقال عن المنهج » ولكن هذا المقال لم يكتب الا في عام ١٦٣٧ أي بعد ربع قرن من تاريخ خروجه من المدرسة · ولم يكن ديكارت بطبعه مؤرخا لأحداث العالم ولا لأحداثه الشخصية · ولم يكن المقال في رأيه سجلا تاريخيا ، انما كان قبل كل شيء تعبيرا عن حكمه على الثقافة العقلية بوجه عام ، وعلى الثقافة التي زود بها هو بوجه خاص · ويبدو من نص المقال وأسلوبه ، أن مراحل تلك الثقافة كانت عبارة عن نماذج لها قيمتها الدائمة ، وان لزم احلال أخرى محل بعضها على الأقل ·

ومن المؤكد أن ديكارت قد حكم على الثقافة التي تلقاها بالمدرسة الابتدائية ، وأن اشاراته الى مراحلها ، وان لم تكن دقيقة تاريخيا ، لم تكن خيالية ، وبالامكان الاستعانة بها على تكوين نظرة صحيحة عن الثقافة التي تلقاها ديكارت بمدرسة لافليش لليسوعيين وعن مدى افادته منها • ولم تتغير الثقافة في مدارس اليسوعيين فاناحيتها الادبية حتى عصرنا الحاضر ، وعلى أسسها قام الأدب الفرنسي الكلاسيكي • وعنها صدر أسلوب اللغة والانشاء والتأليف الفرنسي حتى اليوم • وتقوم تلك الثقافة في مرحلتين : الأولى أدبية لغوية ، هي دراسة الكتاب اليونان والرومان القدماء في لغتهم الأصلية • والثانية هي مرحلة الدراسة العقلية البحتة التي تقوم أغلبيتها في مواد الفلسفة ، وأقليتها في العلم الرياضي •

وتتوزع المرحلة الأولى ذاتها وفق سن الطالب ومقدار تحصيله ومرتبة نضوجه الى فترتين • فهو يدرس أولا لليونان والرومان قصصهم وتاريخهم ، ويواصل هذه الدراسة مدة سنوات ثلاث ، ثم ينتقل بعدها الى فترة جديدة لا تزيد على ثلاث سنوات ، يدرس خلالها خطب القدماء وشعرهم •

وعندما يصعد التلميذ الى المرحلة الثانية التي تستمر سنتين يدرس في الأولى المنطق مع الرياضيات وفي الثانية الاخلاق مع الطبيعة وما بعد الطبيعة • ولا يختلف وصف ديكارت في المقال عن البرنامج الذي أشرنا اليه • يبدأ بالقصص والتاريخ ثم ينتقل الى الشعر والخطابة ، وينتهي بالرياضيات والفلسفة • أما رأيه في تلك الثقافة فلا بد من النظر اليه بعين الحذر : فقد كان من الممكن أن يكون مختلفا لو جاء بعد نهاية تلك الدراسة فورا• أي بعد تخرجه من المدرسة المذكورة • ولكنه مرتبط في صورته الفعلية بما أراده ديكارت من الفلسفة والعلم والثقافة بوجه عام بعد السنوات الطويلة التي أعقبت خروجه من المدرسة •

ومن الملاحظ أن ديكارت لا يهدف من وراء حديثه عن مراحل الثقافة الادبية التي مر بها خلال دراسته الأولى نقد برنامج تلك المراحل بل يشير الى أنه درس ذلك دراسة كافية ، فخاصة الأمور القصصية والتاريخية (١) • ثم لا ينكر الشعر والخطابة وأنه تمتع بجمالهما وروعتهما وأثرهما

(١) ديكارت : المقال في المنهج ل• ٩٥ •

في حياة النفس (١) ، كون اهتمام اليسوعيين بتلك المواد في مدارسهم بفرنسا بذ كل تدريس وشرح لها في المحيط الأوروبي بكامله • فعلاوة على الدقة في فهم النصوص القديمة لغة ونحوا وأدبا امتاز هذا التدريس بتوجيه الطلاب نحو الأسلوب اللازم في التعبير الشفوي وفي الكتابة ، وبتوجيه عقولهم وخلقهم وطباعهم وسلوكهم الخارجي الى الافضل والامثل والاكمل ، ويبدو هذا التوجيه واضحا في أن التلميذ لا يطالع النصوص القديمة كاملة ، انما يقرأ مختارات منها توضب له خصيصا وتناسب عمره ، والمجتمع الذي يعيش فيه ، والدين الذي ينتسب اليه • وتدريس اللغات القديمة تدريس موجه من الناحية الادبية ، ثم من الناحية المعنوية الروحية والعقلانية • وأثر دراسة الأدب اليوناني ظاهر في تنمية الخيال الادبي • أما أثر الأدب اللاتيني فهو واضح في ضبط أسلوب التعبير واخضاعه للدقة اللاتينية التي تكاد تحاكي في ميدان الادب واللغة دقة الجبر والهندسة أو دقة القانون الروماني ذاته •

---

(١) ديكارت : المقال في المنهج ل• ٩٤ •

ولا يزيد اليسوعيون في الناحية الادبية على ما في الأصول ذاتها وما يستمد منها الا أن يوجهوا الخيال الى مثال العظمة والقوة في القصص والادب، والى ما كان مضبوطا منتظما في الأسلوب • وعلى ذلك يكون مبدأ الادب الكلاسيكي ومثاله الأعلى ، كما يراه اليسوعيون ، اتحادا العظمة بالنظام ، والقوة بقواعد العقل • أما من الناحية المعنوية فكان قصدهم تربية النفس وتدريبها على الشجاعة، باعتبار أبطال اليونان والرومان نماذج واضحة لها ، وعلى الطاعة وحسن الانقياد ، وتنفيذ التعاليم ، وأسلوب الرومان في الحكم والحرب وفي التأليف أيضا أنموذج يجسد الطاعة بكافة مقوماتها الخلقية والاجتماعية •

ولكن الشجاعة والطاعة ، يهدفان من خلفهما الى تعلم الارادة وتدريبها ، كونها من أهداف اليسوعيين بصورة عامة • ويرى ديكارت آن هؤلاء الأساتذة كانوا متشددين في اعتدال ، فكان تلميذهم عادة مهذبا ، لا يرفع صوته كثيرا ، ولا يفرط في الكلام ، ولا يخرج على نظام المدرسة ، يتعود على الطاعة ، في جو من الحرية المطلقة •

واذا حاولنا أن نكون فكرة صحيحة عن الغاية من صقل فضيلتي الشجاعة والطاعة في الفرد عرفنا أن التوجيه اليسوعي كان معنويا خلقيا قبل أي شيء آخر ، بل دينيا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وسياسيا بعض الشيء ، ومحاولة للتوفيق بين أدب وأخلاق اليونان والرومان ، وبين ما تفرضه الحكومة والدين من واجبات وقوانين • وعندئذ تبدو الثقافة الادبية في كتب اليونان والرومان توجيها فعالا نحو طاعة الملك والخضوع لله وكنيسته • ونلمس أولى قواعد الاخلاق في المقال تنص على أن يخضع الفيلسوف لتشريع بلده وتقاليده وأن يبقى على الدين الذي أنعم الله عليه به (١) •

وبديهي بعد كل ما أشرنا اليه أن يكون ديكارت، على رأس رجال الأدب الفرنسي في القرن السابع عشر محافظا ، متبعا لما يرى من قواعد ، لكن في حرية • فلم يطالبه معلموه بأكثر من ذلك ، بل لم يعلموه شيئا غير ذلك • لذلك نلمس مواقف ديكارت من ثقافتهم الادبية ومبلغ تأثيرها فيه • أما نقده

---

(١) ديكارت : المقال في المنهج ل. (١٠٦ - ١٠٧) •

للثقافة العقلية في ناحيتيها الرياضية والفلسفية ، فقد كان كما هو معلوم لاذعا شديدا ، الا أنه ينبغي لتقدير قيمته أن نلم بما تعلمه من معلميه في هاتين الناحيتين على الاقل ·

من الملاحظ أن ديكارت درس الأمور الرياضية على أفضل معلميها وطالع واياهم كتاب كلافيوس اليسوعي وهو عمدة الجبر في ذلك العصر · درس الجبر اذن علاوة على فروع الرياضيات التقليدية من هندسة وحساب وفلك وموسيقى · وتعطينا اشارات ديكارت الى تلك الدراسة على أن المامه أثناءها بالعلوم الرياضية كان كافيا وافيا ، واكتمل فوق ذلك بتطبيقات عملية سواء في مساحة الارض أو في الصناعات الميكانيكية المعروفة ·

واعترف ديكارت بالقدرة النظرية للعلم الرياضي الذي رشفه عن اليسوعيين ، ولكنه نقد ضيق تطبيقاته (١) ·· ولعل حسب رأي ديكارت تلك الدروس التي رضع لبانها لم تعد أن تكون عبارة عن موجزات مختصرة للمذهب الذي أوجده

---

(١) ديكارت : المقال في المنهج ل· (٩٥ ـ ٩٦) ·

توما الأكويني والذي فسر فيه حكمة أرسطو تفسيرا مسيحيا • اذ من المعلوم أن الكنيسة الكاثوليكية في مجمع ترنت قد أوصت المدارس والجامعات المسيحية باتباع مذهب توما الأكويني في تعلم الفلسفة واللاهوت • ولكن لا بد لنا من القول أن اليسوعيين لم يفرضوا على تلامذة مدارسهم ضرورة الاخذ بمحتوى مصنفات أرسطو أو توما الاكويني بدليل أن من يعتمد فلسفة ديكارت في النواحي التي يظهر فيها قريبا الى المعلمين لا يجد فيها أثرا للفلسفة الأرسطية ، كما أولها توما الاكويني • والاغلب أن اليسوعيين لم يهتموا بفلسفة أرسطو الاكويني في التجربة وعلاقتها بالوجود ، أو في العقل الانساني وعلاقته بالحس ، أو في الوجود ذاته وعلاقته بمبدئه الاول • ويلاحظ أنهم اكتفوا بارجاع المذهب الأرسطي الاكويني الى بعض معان فلسفية رئيسية ، كمعاني الجوهر والصورة ، والمادة والطبيعة ، وأنواع العلل المختلفة ، وأنواع الحركات ، كما نص على ذلك أرسطو في الطبيعة وفيما بعد الطبيعة (١) •

(١) الاكتشاف الميتافزيقي للانسان عند ديكارت ص (٢٦ ـ ٣٢) •

ولما شاء ديكارت أن ينشر كتابه « مبادىء الفلسفة » وأن يقرن فيه كل فقرة بفقرة مختارة من مؤلف فلسفي مدرسي معروف ، ليبين امتياز فلسفته على الفلسفة المدرسية ، لوحظ عدم الاهتمام بالمذهب التوماوي كونه قد فقد عندهم روحه وحياته .

ولا بد لنا من الاشارة الى النقد السريع الذي وجهه ديكارت في « المقال عن المنهج » للفلسفة التي تعلمها ، حيث نلاحظ أنه لم يشر لا الى أرسطو ولا الى توما الاكويني ، ولا الى أي نظرية واضحة متكاملة استخلصها من دروس الفلسفة . وهذا يعني أن اليسوعيين كانوا قبل كل شيء ملفقين في الفلسفة يجمعون فيها بين أمور بعضها صادر عن توما الاكويني والبعض الآخر عن دانز سكوت أو غيرهما من المدرسيين ، كما ظهر ذلك من مطالعة كتب معلمهم الاول سواريز .

ووجه ديكارت انتقادا شديدا لفلسفة أساتذته وعاب عليهم اعتمادهم على الجدل السخيف والنقاش العقيم بين نظريات مختلفة لا يمكن أن تكون كلها صحيحة ، في آن واحد ، في موضوع واحد ، وليست

أبحاثهم سوى محاولات ترجيح نظرية على أخرى ، من شأنها ترك العقل يتمتع بحريته الكاملة ، يختار ما يروقه من الأمور النظرية دون أن يكون على يقين من أي شيء • وبذلك تصبح الفلسفة ليست سوى مدرسة للشك قبل أن تكون مدرسة يقين وعلم (١) •

أما في ميدان الفلسفة العملية أو الاخلاق فيبدو أن الدروس اقتصرت على مطالعات بليغة مختارة من كتب الرواقيين دون أن تكون لتلك المطالعات ولتعليق المعلمين عليها أي علاقة بالحياة العملية التي يريد ديكارت أن يختط طريقة فيها بثبات وحزم كاملين • ولربما فرض لغاية منهم النقد الديكارتي للفلسفة التي تعلمها أن نضم الى ذلك النقد نقده للرياضيات ، وأن ننظر بوجه عام في نقده للثقافة العقلية التي تعلمها ، فعيب العلم الرياضي الذي درسه ، هو أنه لا يمكن دارسه من تطبيق عام شامل في جميع أوجه الحياة والعمل ، مما يدل على أن هذا العلم كان محدودا ضيقا • وعيب الفلسفة أن لا وسيلة فيها تجنب الانسان

---

(١) ديكارت : المقال في المهنج ص ٩٢ •

الخطأ ولا قاعدة يثبت أقدامه في الحياة عليها • وديكارت تواق كما يرى الى أن يميز الصحة من الخطأ ليرى بوضوح ، ويسير في ثبات •

ومن هذا المنطلق الديكارتي كان العيب الجوهري لتلك الثقافة العملية في مراحلها العليا أنها ليست حكمة بالمفهوم الحقاني ، فاليقين معدوم في الناحية النظرية ، والتطبيق محدود ضيق كل الضيق • أما الفلسفة الحقة فهي بحث عن الحكمة ، ومن شأن الحكمة أن تكون نورا مشعا للانسان يقوده في الحياة العرفانية الى المثالية والكمال •

ومما يلاحظ أن ديكارت بعد خروجه من المدرسة الأولية في لافليش ، لم يصرح بالنقد الأساسي الذي أشار اليه في « المقال في المنهج » بعد ذلك الوقت بربع قرن • ولكن الاشارة تحمل نوعا من ذكرى خيبة الامل التي شعر بها عند خروجه من المدرسة • الا أنه لم يمتنع حتى في أوقات كان يندد فيها بالعلم والفلسفة المدرسية من الاعتراف بأنه تلقى عن اليسوعيين أفضل ثقافة يمكن لشاب أن يتلقاها ، وبأنه مدين لأساتذته ببذور تفكيره ، بل من أن ينصح صديقا له بارسال ابنه الى مدارس

اليسوعيين (١) ·

وبعد أن غادر ديكارت مدرسة لافليش في صيف عام ١٦١٤ أي بعد أن جاوز الثامنة عشر بقليل ثم حصل من جامعة بواتييه في عام ١٦١٦ على درجتي البكالوريوس والليسانس في الحقوق ، سجل ديكارت اسمه في سجل المحامين منذ تخرجه ولم يترافع أبدا · وفكر في عام ١٦٢٢ في شراء وظيفة قضائية وذلك عندما حصل على استقلاله المالي ، ثم أبعد تلك الفكرة عن مخيلته بعد حين ·

كان ديكارت كما يقول من دونوا تاريخه شابا اجتماعيا ، بعد تخرجه من مدرسة فليش ، وكان يجيد الرقص واللعب بالسيف · ثم اشترى له أبوه وظيفة ضابط ، على عادة نبلاء ذلك العصر ،وأصبح ديكارت في عام ١٦١٨ ضابطا بجيش موريس دي ناسو الهولندي وحليف فرنسا · وعــاش ديكارت بمدينة بريدا بهولندا مدة ما ، وتعرف أثناءهــا باسحق بيكمان الذي كان له أعظم الأثر في توجيهه توجيها علميا · وبيكمان أكبر من ديكارت بثمان

---

(١) خطاب لديكارت في ١٦٣٨٩/١٢ (أ ـ ت· المجلد الثاني ٣٧٨) ·

سنوات ، وكان في ذلك الوقت وكيل مدرسة ثانوية، يعني خارج وظيفته هذه ، بالرياضيات والعلـوم وبعلم الطبيعة بنوع خاص ، متجها في بحوثه الى تأويل الظواهر الطبيعية تأويلا رياضيا ميكانيكيا عاما ، قريبا الى ذلك الذي اتخذه جاليليو في نفس الوقت تقريبا • ولا شك في أن ديكارت تعلم منه الكثير أثناء اقامته في مدينة بريدا الهولندية بدليل تلك الكلمات التي كتبها له في ذلك الوقت : « انك في الحقيقة الانسان الوحيد الـذي أيقظني مـن خمولي ، وأعاد الى نفسي علما كاد يتمحي مـن ذاكرتي ، وأرجع عقلي الى جليل الاعمال بعد أن كان قد نبذها • وبدليل أن ديكارت أهدى اليه أول كتاب ألفه وعنوانه « ملخص الموسيقى » راجيا منه في الاهداء أن يحتفظ بالكتاب لنفسه ما دام هـو بالفعل صاحبه وملهمه •

وكان ديكارت وهو في هولندا ينفق ساعـات فراغه من الخدمة العسكرية في الدروس والتحصيل، وخصوصا في درس الرياضيات ، وكان الى جانـب ذلك يدرس اللغة الهولندية والتصوير والعمارة الحربية • ومن هولندا توجه ديكارت الى ألمانيا • وكانت حرب الثلاثين سنة على وشك النشوب فيها،

فانخرط بصفوف الجيش الذي كان قد حشده ناخب بافاريا لمقاتلة بوهيميا الثائرة ·

وبعد فترة وقعت لديكارت حادثة كان لها أكبر الأثر في حياته كلها : ذلك أنه في خلال سنة ١٦١٩ ـ ١٦٢٠ ، حين كان يعيش ببلدة « نويبرج » على شاطيء الدانوب ، حدثت له أزمة عقلية ، فحبس نفسه ، وعكف على التأمل وامعان الفكر في خواطر أدت به الى نظريته العامة في المنهج للبحث عن العلوم · ويحدثنا ديكارت عن ذلك فيقول : « كنت حينئذ في ألمانيا ، عندما استدعتني الحروب التي لم تنته فيها بعد ، ولما كنت في عودتي من الاحتفال بتتويج الامبراطور ، ألجأني بدء الشتاء الى قرية لم أجد فيها شيئا من السمر ، ولم يكن لدي لحسن الحظ ما يشغلني من هموم أو أهواء ، فكنت أحبس نفسي طول اليوم وحدي ، في حجرة دافئة ، حيث كنت أفرغ الفراغ كله لحديث نفسي وتصريف خواطر فكري ·

يبدو ان هذا الحديث النفسي الذي يشير اليه ديكارت لم يكن تأملا هادئا فاترا ، كما يمكن أن يسبق الى الوهم ، ذلك أن احدى القطع الادبية التي

تركها « بابيه » من كراسة اسمها « أولمبيقا » تشير الى أن حديث ديكارت عن نفسه واستغراقه في التأمل والتفكير قد صحبه ذلك اليوم هيجان نفسي غريب • ولنستمع اليه وهو يقول : ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٩ : ما كان أشد ما طارت نفسي حماسة وجيشانا اذ اكتشفت أسس علم بديع (١) !

وفي هذه الحال من الحمى العقلية استسلم ديكارت للنوم ، فشاهد ثلاثة أحلام : كان في الحلم الأول يسير في الطريق ، فأحس فجأة أثناء سيره بفزع وارتعاب شديدين أفقداه توازنه ، فحاول مسرعا استرجاع هذا التوازن • وعندئذ فاجاءته ريح عنيفة قلبت جسمه رأسا على عقب ، فجرى في شيء من التعثر الى مدرسته ليصلي في كنيستها • ولكنه تذكر عند دخوله اليها ، أنه لمح أثناء جريه في الطريق رجلا كان يعرفه ،فخرج فورا من الكنيسة ليلحق به ويحييه ، ولكن ريحا أقوى من السابقة دفعت بجسمه الى جدار الكنيسة ، وعندئذ جاءه رجل آخر وطلب منه في أدب ولطف أن يقابل صديقا يريد اهداءه شيئا ثمينا ، فظن ديكارت أن الهدية

---

(١) مجموعة مؤلفات ديكارت : ص ١٧٩ •

لم تكن الا شمامة مستوردة من الخارج • وكـان ديكارت طول الحلم ، متعجبا من احتفاظ جميـع الناس بتوازنهم ، الا هو ، وتيقظ في النهاية متيقنا من أنه ألعوبة روح خبيث (١) •

وعندئذ دار ديكـارت في سريره ورقـد على جانبه الأيمن ورفع الى الله صلاة قصيرة • ثم نام ففوجيء مباشرة بحلم ثان أعنف من الاول وان كان أقصر منه ، سمع قصف الرعد ، وخيل اليـه أن عينيه مفتوحتان وأنه يرى غرفته تلمع كلها بأشعة نور قوي ، وتيقظ بعد ذلك وفكر في هذه الرؤيا واطمأن اليها شيئا ما • ثم نام من جديد فحلم لثالث مرة حلما ارتاح له ارتياحا كـاملا : رأى علـى منضدته كتابين أحدهما قموس اغتبط لـه أشـد الاغتباط والآخر مجموعة من مختارات الاشعـار تصفحها مباشرة فأعجب ببيت فيها اعجابا قرر بعده أن يتخذ البيت شعارا لحياته في المستقبل وهو بيت لشاعر لاتيني اسمه أوزونيوس يتساءل فيه : أي طريق في الحياة أتبع ؟ وفي أثناء تصفحه هذا الكتاب جاءه شخص مجهول ، وقدم له قصيدة لنفس الشاعر

---

(١) مجموعة مؤلفات ديكارت : ص ١٨٠ •

تبدأ بالكلمات نعم أم لا ؟ وحدثه المجهول عن جمال القصيدة ، فرد عليه ديكارت بأنه يعرفها ، وبأنها في كتاب المختارات الشعرية • وعندما حاول العثور على تلك القصيدة في الكتاب لمح اختفاء القاموس • ولكنه رأى القاموس بعد ذلك ، وقد تغير شكلـه ومحتواه • وعمل ديكارت على تصفح المختارات فلاحظ في اعجاب صورا جميلة تملأ الكتاب ، ثم اختفى الشخص المجهول واختفت الكتب ، وبقـي ديكارت في نومه محاولا أثناءه تفهم معنى هـذه الرؤى • فاعتقد أن القاموس رمز الى جميع العلوم في اتحادهها ، وأن المختارات الشعرية رمز الى اتحاد الفلسفة بالحكمة • ولم يتردد أثناء نومه في الاعتقاد بأن الهـام الشعراء منبع لحكمـة تفـوق تفكـير الفلاسفة •

ثم أفاق ديكارت من نومه مطمئنا الى الحلـم الثالث واثقا بأن روح الله قد أرادت أن تكشف له كنوز العلم والحكمة بينما اعتبر الحلمين الأولين بمثابة انذار نهائي له ضد ماضيه حتى اليوم •

ولقد ذهب المؤرخون في تأويل عام لتلك الاحلام مذاهب شتى ، حتى التجأ بعضهم الى فرويد نفسه

الذي لم ير امكان تفسير معين بالذات مـا دامت الأحلام لشخص ليس على قيد الحياة • ويكفي أن نلاحظ في الحلمين الأولين تعبيرا عن قلق ديكارت وحيرته بين اتجاهات مختلفة ، قد تتخذها حياته ، بين ماض أراد التحرر منه ، ومستقبل لم يعرف عنه شيئا • ثم جاءت أشعة الضوء في نهاية الحلم الثاني اشارة الى نقطة تحول في حياته ، ورمزا الى ارادة حاسمة عنده للتحرر من الماضي ، والتقدم الى مستقبل نضوج وخصب • ثم جاء الحلم الثالث ممثلا لوحدة فلسفية عليا فكر فيها ديكارت منـذ التقى ببيسكمان ، بل لعله فكر فيها تفكيرا غامضا منذ السنين الاخيرة لدراسته بلافليش •

وقد سجل باييه مؤرخ ديكارت أن الفيلسوف اكتشف في تلك الليلة أسس العلم العجيب (١) ، ولكن البحوث التاريخية لا تظهر أن ديكارت قام في ذلك الوقت • أو بعده بقليل ، باكتشاف علمـي معين ، أو أنه شرع في تأسيس فلسفة كاملة •وثابت أن ديكارت لم يكتشـف في تلـك الليلـة الشهيرة مبادىء الهندسة التحليلية ، وأنه لم يبدأ بعدها

---

(١) باييه : حياة ديكارت جـ١ ص ٨١ •

مباشرة في تحرير كتاب القواعد لتوجيه العقل .

ولكن هناك أمران يمكن تأكيدهما من الناحية التاريخية : الاول أن مخطوطات ديكارت في ذلك الوقت تدل على أنه كان بين موقفين عقليين : موقف هندسي ميكانيكي اتخذه بعد بيكمان وأدى به بعد سنين الى تعميم المبدأ الآلي والى اتخاذ تفسير رياضي كامل في الطبيعة ، ثم موقف آخر غير واضح تماما أشار فيه الى وحدة الطبيعة والى الحب والانسجام اللذين يقربان أجزاء الطبيعة فيما بينها . وقد نبذ ديكارت هذا الموقف الاخير حتى اننا لا نجد له أثرا في مخطوطاته بعد ذلك أو في مؤلفاته (١) .

والأمر الثاني الذي يمكن تأكيده هو عزم ديكارت الصادق على تخصيص حياته للتفكير ، بدليل اعتزاله وظيفته العسكرية ، ثم رفضه بعد ذلك منصب القضاء الذي عرض عليه عندما استقل عن أسرته استقلالا ماليا كاملا ، في عام ١٦٣٢ ، وتعهده بالحج على أقدامه حتى دير العذراء

---

(١) ف. الكييه : الاكتشاف الميتافيزيقي للانسان عند ديكارت ص (٤٥ - ٤٦) .

بلوريت في ايطاليا ، ذلك الحج الذي سمع عنه منذ سني تلمذته بلافليش ونذره للعذراء بعد ليلة ١٠ نوفمبر ١٦١٩ ٠

ديكارت يتجه كلية الى العلم والتحصيل :

التاريخ يقف من ديكارت وكيف أمضى الفترة من عام ١٦١٩ وعام ١٦٢٢ صامتا على وجه التدقيق عندما نلاحظ في هذا العام الاخير أن ديكارت وجد في فرنسا الى جانب أفراد أسرته ليلاحق نصيبه من ميراث والدته ٠ ولكن المعروف أن ديكارت قام برحلة طويلة من جنوب غربي ألمانيا حيث كان في نهاية عام ١٦١٩ الى شمالها وأبحر منها الى هولندا حيث بقي مدة قصيرة ٠ ثم أبحر من هولندا الى فرنسا في رحلة لا يمكن تحديد ميعادها بدقة ٠ انما يقال أن بحارة مركبه في هذه الرحلة اعتزموا قتله هو وخادمه وسلب ما معهما من أموال ومتاع ٠ ولكنه علم بنواياهم فقام للتو شاهرا سيفه عليهم ، وعددهم لا يقل عن العشرين ، مهددا أي واحد منهم يجرؤ على مهاجمته ٠ فذعروا وتركوه لشأنه يكمل رحلته . وينزل من المركب في دنكرك ٠

وليس بمقدورنا أن نؤكد الكثير عن رحلته الى ايطاليا ، وعما اذا كان قد حج الى لوريت أم لا . وكل ما يعرف عن حياته بين نهاية عام ١٦٢٢ وعام ١٦٢٥ أنه سافر الى ايطاليا بالفعل ، ثم عاد منها غير راض عن رحلته الى تلك البلاد . ثم عاش من سنة ١٦٢٥ في فرنسا بين باريس والريف مدة ثلاث سنوات تقريبا تعرف أثناءها بجمهور من العلماء ورجال الدين أخصهم مراسله وصديقه فيما بعد الأب مرسين ، والذي كان مدة عشرين سنة واسطة التعارف والتراسل بينه وبين علماء وفلاسفة ولاهوتي أوروبا . واتصل أثناء اقامته هذه بعلماء طبيعيين ومهندسين ورجال كانوا يعنون بتطبيق العلم والرياضة في الصناعة ، وكان من بينهم صديقه فرييه الذي عهد اليه ديكارت بصنع ما احتاج اليه من آلات لبحوثه العلمية والضوئية بنوع خاص .

وأهم أحداث حياته في تلك الفترة الاجتماع الذي تم في خريف عام ١٦٢٧ عند القاصد الرسولي بباريس ، وحضره ديكارت والكردينال دي بيرول مؤسس جماعة الأوراتوار الدينية ، وغيرهما من كبار العلماء والمفكرين ، واستمعوا الى حديث رجل

اسمه دي شاندو تكلم عن أسس العلم الذي يجب بمفهومه أن يحل محل العلم المدرسي • ولم يقنع الحاضرين بكلامه الذي جمع الى الغموض ادعاءات غريبة بعيدة عن العلم كل البعد • وهنا طلب الكردينال دي بيرول من ديكارت رأيه في الموضوع ، فأجاب في حذر شديد بادئا بنقد وتفنيد ادعاءات دي شاندو • ثم أشار في اقتضاب الى مباديء أخرى تكفل للعلم استقلاله وتقدمه وخصبه ، وللدين جلاله وعظمته •

ولما عرف الكردينال دي بيرول قيمة المباديء التي أدلى بها ديكارت ، دعاه الى زيارته ، وسأله أن يبسط له أفكاره بسطا أو في مرة أخرى ، وأهاب به أن يفرغ لاصلاح الفلسفة ، وأن يستعمل في مناصرة الحقائق الميتافيزيقية الكبرى التي توافق العقيدة الكاثوليكية ما حباه الله من قوة القريحة ونفاذ البصيرة •

وان لم تسجل لنا اعترافات ديكارت في الموضوع فالأغلب أنه لم يصرح أثناء رده على دي شاندو بأي نظرية ميتافيزيقية جديدة ، انما اكتفى بالكلام عن أمله في قيام علم طبيعي ميكانيكي عام ، يستخدم

الاستدلال الرياضي في جميع نواحيه • ومن المؤكد أن كانت زار الكردينال بعد هذا الاجتماع أكثر من مرة ، وحدثه عن آرائه ومشروعاته العلمية •وربما تعهد للكردينال بأن يمضي في تلك المشروعات حتى نهايتها ، وأن ينتقل بعد ذلك الى البحث عن فلسفة تكفل للعلـم استقلالـه وتعتـرف لله بمنزلتـه وقدرته (١) •

وفي عام ١٦٢٨ قرر ديكارت الاعتكاف والخلوة وترك الحياة الاجتماعية بصورة نهائية • فتـرك فرنسا وأوصى أصدقاءه بالبحث عن منـزل لـه بالريف الهولندي • وعندما تم له ذلك سافر الى هولندا وعاش فيها في عزلة تكاد تكون تامة حتى نهاية حياته تقريبا • ولم يكن يقيم ببلدة واحدة في هولندا أو منزل مدة ما الا وانتقل الى مدينـة جديدة أو منزل جديد بعيد عن المنزل السابق حتى لا يألف الى الناس ولا يألفوا اليه ، وكان لا يعطي عنوانه الا لصديقه مرسين موصيا اياه بأن يرسل اليه خطاباته لا في منزله ، انما في منزل شخص آخر

---

(١) بايبه : حياة ديكارت ج١ ص ١٦٠ - ١٦٦ • الكبيه : ديكارت ص ٤٢ - ٤٣ •

يتسلم ديكارت منه الخطابات تباعا • وكان ديكارت يفضل الريف على المدن • انما كان مع ذلك يتخذ مسكنه في الريف غير بعيد عن مدينة من المدن حتى يتمكن من شراء لوازم منزله أو معامله العلمية •

وكانت اقامة ديكارت في هولندا في عام ١٦٢٦ في مدينة فرينكر بعد عدة رحلات بين هولندا وفرنسا • وسكن بيتا بالقرب من أبواب المدينة حتى لا يكون بعيدا عن الريف • ثم انتسب الى جامعتها حيث واصل فيها دروس علم الطبيعة وخاصة دروس علامة متخصص في المجاهر ثم ترك فرينكر في نهاية العام ، واتجه الى امستردام فأقام فيها اقامة شبه مستديمة الى عام ١٦٣٥ ، وكان يتنقل من منزل الى آخر في المدينة ، ويقوم برحلات تطول أو تقصر في بعض المدن الهولندية الاخرى •

ويروى أنه في عام ١٦٣١ انتسب الى جامعة ليدن ، واتصل فيها بالرياضي والمستشرق جوليوس الذي عرض عليه بعض المسائل الهندسية ، التي لم يحلها الهندسيون القدماء • فاهتدى ديكارت أثناء حلها الى اكتشاف مباديء الهندسة التحليلية • وتعرف ديكارت عن طريق جوليوس بقسطنطين

هويجنز والـد عالم الضوء الشهـير كريستيـان هويجنز ، وكان الأب يشغل في ذلك الوقت منصبا مهما في البلاط الهولندي كما كان علاوة على ذلك علامة في الطبيعيات والرياضيات مغرمـا بالفـن والأدب والموسيقى •

وفي عام ١٦٣٣ استقر فترة في مدينة ديفنتر واتصل بهيلين هانس التي ربما كانت في خدمته في ذلك الوقت ، وأنجب منها بنتا سماها فرانسين ، وفاء لذكرى بلاده ووطنه • ولم يشر ديكارت الى تلك العلاقة الا في النادر ، والا لأمور منها مثـل اعداد اقامة لابنته أو احضار مرضعة لها • ولم يهتم بهيلين ، انما أحب ابنته حبا كبيرا ، وحزن على وفاتها وهي في سن الخامسة أشد الحزن •

وفي نهاية عام ١٦٣٣ الى عام ١٦٣٥ استقر في امستردام واتخذ لنفسه في تلك المدينة أكثر من منزل • وسافر أثناء تلك الفترة الى الدانمارك في رحلة قصيرة • وفي نهاية عام ١٦٣٥ ، أقام في بلدة باوترخت بشمال هولندا • وعاد في عام ١٦٣٦ الى امستردام حيث عكف على انهاء كتبه العلميـة ، ومقاله عن المنهج ، وشرع من أوائل عام ١٦٣٧

بمباشرة طبع تلك الكتب ·

ويقال بأنه عمل في كتابه انكسار الضوء منذ عام ١٦٢٩ ، وربما انتهى من كتابة مسودة الكتاب في عام ١٦٣٢ · ثم عرض للبحث في نهاية عام ١٦٣١ في مسائل الهندسة الاغريقية ، فانتهى الى اكتشاف الهندسة التحليلية في أوائل عام ١٦٣٢ · وفي هذا العام ، بدأ في تأليف كتاب كامل في « العالم » درس فيه ، بعد الامتداد والحركة ، ظواهر الضوء بوجه عام · وكان يعني من عام ١٦٣١ بالتشريح ، فشرع في سنة ١٦٣٣ بكتابة الجزء الثاني من كتابه السابق « كتاب الانسان » · وكاد ينتهي في عام ١٦٣٣ من الكتاب عندما سمع بخبر ادانة الكنيسة الكاثوليكية لجاليليو لتقريره دوران الارض ·وكان قد وصل الى نفس النتيجة في كتابه السابق · وما سمع بخبر تلك الادانة حتى أعلن لأصدقائه عزمه على الامتناع عن نشر كتابه « العالم » وذلك لسببين رئيسيين : أولهما حبه للدعة ورغبته في تجنب الاعتراض والنقد · والثاني اعتباره القضية العلمية السابقة وكافة قضايا العلم نتائج فروض واستدلات فرضية ليس الا · ثم عمل بعد ذلك على اتمام بحوثه العلمية الاخرى ونشرها : فعلاوة على

كتابه « انكسار الضوء » درس الظواهر الجوية وراح يؤلف في الآثار العلوية كتابا صدر في عام ١٦٣٧ مع كتاب آخر اسمه « الهندسة » ومع « انكسار الضوء » وأصدر مع هذه المقالات العلمية الثلاثة مقدمة لها في تاريخ فكره وفي منهجه وتلك المقدمة هي ما يعرف بالمقال عن المنهج ·

وأخذ ديكارت يتلقى الرسائل من علماء يعرفهم وآخرين لا يعرفهم بصدد ما احتوته مؤلفاته السابقة هذه من آراء علمية جديدة · وتلقى أيضا عدة خطابات أخرى بصدد ما احتوته صفحات « المقال عن المنهج » من نظريات فلسفية ·

ومن المؤكد أن ديكارت قد حاز على اعجاب مراسليه وأرضى نفسه في المسائل العملية ·وكانت الرسائل المتواصلة التي يتلقاها بمثابة مشجع له على المضي في البحث والتفكير الفلسفي · فاعتزم ما بين عام ١٦٣٨ و١٦٣٩ التفرغ للفلسفة تفرغا كاملا · فنجده في عام ١٦٣٨ معتكفا ببلدة سانت بورت بشمال هولندا حيث لم يلق الا أشد المقربين اليه · وظل في تلك العزلة مدة سنتين تقريبا تخللتهما رحلات قصيرة الى أمستردام وأوترخت ·

وفي سبتمبر من عام ١٦٤٠ دعي على وجه الاستعجال لمرض أصاب ابنته فرانسين فلم يحضر الا عندما علم بوفاتها • وكان عام ١٦٤٠ هذا من أقسى الاوقات عليه ، شاهد فيه وفاة ابنته بعد وفاة أبيه •

وانتهى في عام ١٦٤١ الى مؤلف فلسفي جامع عرضه عن طريق صديقه مرسين على بعض كبار الفلاسفة ورجال الدين فتلقى من بعضهم أسئلة واعتراضات عمل على نشرها في نهاية مؤلفه هذا مع اجاباته على تلك الاعتراضات • فخرج الكتاب في عام ١٦٤٢ بعنوان « تأملات في الفلسفة الأولى » يبرهن فيها على وجود الله والتمييز القائم بين النفس والجسم ، مضافا اليه تلك الاعتراضات والاجابات •

ولما أنجز ديكارت كتابه « التأملات » فكر في وضع كتاب جديد يعرض فيه فلسفته للمدارس آملا أن تشيع تلك الفلسفة لا بين العلماء وحسب بل بين الطلاب كذلك ، وخاصة بين طلاب مدارس اليسوعيين ، أساتذته القدماء • ولكنه لم يجد منهم

أي تشجيع • وظهر الكتاب في عام ١٦٤٤ بعنوان « مباديء الفلسفة » •

والظاهر أن كتب ومؤلفات ديكارت واتصالاته الفلسفية بمعاصريه وخاصة باليسوعيين والهولنديين ، قد أثارت الجدل والنقاش دام سنوات عديدة ولم ينته الى نتيجة بينه وبين اليسوعيين ، وهاجمه علماء اللاهوت في هولندا وأساتذة الجامعات وخاصة جامعة أوترخت وعرضوا بآرائه وبتلاميذه من العلماء والفلاسفة ، ثم تعرضوا لحياته الخاصة • وظل ديكارت سنوات يمحص ويفند ادعاءات خصومه ، ويرد على نقدهم ،ويدافع عن نفسه ، بعد هجومهم عليه من جديد ، ويدافع في نفس الوقت عن حرية الفكر والنشر والتعليم • لكن خصومه لم يهدأوا لحظة مما اضطره في نهاية الامر الى الالتجاء الى صديقه هويجنز وكان من رجال البلاط الملكي الهولندي ثم الى سفير فرنسا نفسه لدى ذلك البلاط •

وضاق بحياته في هولندا لولا صداقة الاميرة اليصابات له وخطاباتها في شتى الموضوعات وخاصة الاخلاقية منها ، وابتدأ ديكارت حوالي عام ١٦٤٥

في معالجة المسائل الانسانية بوجه عام ، والاخلاقية بوجه خاص • فكتب فيها الخطابات تلو الخطابات الى الاميرة اليصابات يرد على أسئلتهـا ويوجـه تفكيرها وحياتها • وخرج في عام ١٦٤٩ ، أي سنة قبل وفاته ، بكتاب في « انفعالات النفس » •

وسافر ديكارت الى فرنسا خلال اقامته في هولندا ثلاث مرات قبل وفاته • مرة أولى في عام ١٦٤٤ حيث عكف على مراجعة ترجمة لاتينية للمقال عن المنهج • ثم عاد مرة ثانية في عام ١٦٤٧ فالتقـى ببسكال وتناقش معه في موضوع الخلاء • وفي عام ١٦٤٨ عاد الى باريس تلبية لدعوة خاصة مـن أصدقائه ومن الحكومة الفرنسية ، فوجد البلاد في ثورة أهلية ، وأصدقاءه منشغلين عنه • فعاد الى هولندا خائب الامل •

وقد تعرف ديكارت أثناء زياراته الى فرنسـا بشانو ، الذي عين فيما بعد سفيرا لدى الملكـة كريستينا ملكة السويد ، والذي أصبح واسطـة التعارف بين الملكة وديكارت • وراسل ديكـارت الملكة في المسائل الاخلاقية • وتردد في قبول الدعوة لزيارة السويد ، والاقامة بها مستشارا للملكـة

وأستاذا لها في العلم والفلسفة ، تردد طويلا ، ولم يسعه الرفض في نهاية الامر ٠

ووصل في خريف ١٦٤٩ الى السويد ، حيث وجد البرد شديدا ٠ وكان عليه أن يخرج في الفجر لالقاء دروسه على الملكة ، وهو لم يعتد شيئا من ذلك طول حياته كلها ٠ فاصيب في يناير من عام ١٦٥٠ بنزلة رئوية شديدة ، اضطرته الى البقاء في فراشه أياما ، لم يفق أثناءها من مرضه الا ليعلم قرب نهايتـه ٠ وقضى ديكارت هادئا ، واثقا بالله ٠ وكانت وفاته في اليوم الحادي عشر من شهر فبراير سنة ١٦٥٠ ٠

شخصية ديكارت :

أحيطت شخصية ديكارت بالعديد من القصص والأساطير التي رواها الرواة والكتاب ، وربمـا يكون ما أشار اليه كتاب السيرة الديكارتية مبالغ فيه ، أو على الأرجح غير صحيح ، لكن أمثال تلك الاخبار والروايات لم تكن لتخلق خلقا ، أو تصنف تصنيفا ، ولم يكن تصديق الناس لما ورد فيهـا ممكنا لو لم يكن قد وقع الاتفاق على ملاءمتها لما كان معروفا من أخلاق ديكارت ومزاجه الخاص ،

وما دمنا نرغب معرفة مختلف النواحي في شخصية ديكارت ، لا بد لنا من أن لا نغض الطرف عن تلك الأساطير والخرافات ، أو على الاقل لا نهمل بعض ما ورد فيها لانطباقها وملاءمتها لما عرف عن ديكارت وسلوكه وانفعالاته العقلانية • وليست الامور التي أشار اليها مؤرخ الديكارتية « بابيه » تجسيدا واقعيا لشخصية ديكارت وميوله وعاداته ، حيث نراه يقول : كان طوله دون المتوسط ، حتى سماه أحد خصومه مرة هذا الأنيسان ، وكان كبير الرأس ، عريض الجبهة ناتئها ، أسود الشعر ، ينزل شعره مطويا الى حاجبيه • وكانت عيناه منفرجتين انفراجا عظيما ، وأنفه بارزا واسعا مع استطالة ، وفمه كبيرا ، وشفته السفلى تجاوز قليلا شفته العليا ، يكاد يكون بيضاوي الوجه • وكان لونه في طفولته أصفر باهتا ، وفي شبابه يضرب الى الحمرة ، وفي كهولته يميل الى لون الزيتون • وكان في وجهه خال يزول ويعود من حين الى حين ، وجهه يعبر عن معاني التأمل وصرامة السلوك • وكان صوته ضعيفا خافتا بسبب انحراف بسيط في الرئتين ، وهندامه يدل على العناية في غير بذخ أو ترف • ولم يكن ديكارت

يجري خلف الموضات ، لكنه لم يكن يتحداها • وكان اللون الاسود أحب الالوان لديه ، وكــان يرتدي قلنسوة رمادية أرجوانية وقت السفر (١) •

واذا صرفنا النظر مؤقتا عن هذه الأوصــاف الجسمية الدقيقة التي أوردها بابيه وألقينا نظرة على صورة ديكارت المعروضة في متحف اللوفر في باريس ، لشاهدنا رأسا صلبا ، وعينين عميقتين ، وأنفا فيه شمم ، وذقنا ينم عن قوة الارادة وصلابة العود ، وكل ملامح ديكارت التي تجسدها تلــك الصورة الناطقة تدل على القوة الباطنة المنبثقة عن نشاطه الروحي الوثاب ، والتأمل العميــق ، واستمرار الفكر والروية •

ويضيف بابيه الى ذلك قائلا : انه في أخريات أيامه قلل في كمية الأطعمة التي كان يتناولها في المساء ، لأنها كانت تضايقه في الليل • وكان يشرب قليلا جدا من النبيذ ، وقد يكف عن شربه شهورا طوالا • وكان يتجنب اللحوم التي تزيد في تغذيتها عن حاجة جسمه ، وكان يفضل الفاكهة والخضر ،

---

(١) بابيه : حياة ديكارت ص ٢ •

ويعتقد أنها أصلح لحياة الانسان من لحوم الحيوان • وكان ينام من عشر ساعات الى اثنتي عشرة ساعة ، لا يغادر مضجعه يشتغل فيه صباحا ، ويتغذى ، ثم يمضي بضع ساعات في المحادثة وفي زراعة حديقته ، أو في التريض على صهوة جواد في أغلب الاحيان • وكان يستأنف عمله حوالي الساعة الرابعة ، فيمضي فيه الى ساعة متأخرة من الليل •

ويروى أن ديكارت كان وديعا لطيفا مع أصحابه وخدمه (١) • وكان سلوكه مع الناس سلوك الرجل الفاضل ، ينزل الصداقة منزلة رفيعة ، ويرى أن من أكبر نعم الحياة أن يستمتع بالتحدث الى الاشخاص الذين يحبهم ويقدرهم (٢) • ومن الواضح ان ديكارت كان في ردوده على هجمات الخصوم وانتقادهم ، يعمد الى القسوة والعنف ، وأحيانا يصفهم بالغباء والجهل ، ويرميهم بالحماقة وسوء النية ، ويوجه اليهم السخرية اللاذعة • ومن نماذج سخرية ديكارت أن «رفيوس» أحد القساوسة

---

(١) مؤلفات ديكارت ، م ١٠ ص ٣٧٨ •
(٢) المصدر نفسه م١٠ ص ٣٧٩ •

الهولنديين ، ظن أن الفيلسوف الفرنسي انما هاجر الى هولندا رغبة منه في اعتناق العقيدة البروتستانتية والتخلي عن الكاثوليكية • ورأى « رفيوس » هذا في تحقيق تلك الرغبة كسبا عظيما للدعوة البروتستانتية في هولندا ، ففاتح ديكارت في هذا الامر ، ولكن ديكارت رد طلب القس في رف وقال : لما كنت فرنسيا فيعنيني أن أبقى مخلصا لدين مليكي • والظاهر أن « رفيوس » لم يفهم وجه تمسك ديكارت بدين ملك فرنسا ، وألح في السؤال عن سبب ذلك ، فأجابه ديكارت في شيء من السخرية : اذن فسأبقى مخلصا لدين مرضعتي !

كان العلم بنظر ديكارت أشبه بسلاح ذي حدين: ديكارت حذر من علم ملقن ، ولكنه راغب في نفس الوقت في التعلم ، متخوف من الفشل ، عازم على المضي الى الامام بتصميم وارادة لا تقهر • ولذلك كانت أحلامه في نوفمبر ١٦١٩ مناسبة لانتقاله من مرحلة الحيرة الى مرحلة الثقة ، وتباشير هذه الثقة، في البداية حماسة بالغة • ولكنها ليست حماسة مذهول أمام أمر عجيب بل حماسة رجل واثق في قدرته على الفهم والعمل •

ولعل هذه القدرة الصادرة عن قوة أصيلة في النفس ، طابع الرجل في حياته ، وأفعاله كلها ، وفي استجاباته كلها للاحداث ، وفي تاليفه وتفكيره الفلسفي . ومظاهر القوة عند ديكارت غير صريحة ولا واضحة ، مثل لباقته وسياسته مع من يعترف بقدرته ويريد مع ذلك الافادة منه كمعاملته لغيره كالعلامة الرياضي الفرنسي، وكمعاملته لليسوعيين بنوع خاص . فهو يمتدح هؤلاء اذا اقتربوا منه في رفق ، ولا يهاجمهم اذا هاجموه أو خالفوه ، ولا يتجاهلهم بأي حال من الاحوال . انما يدافع عن نفسه ويدعو خصومه الى الالتقاء به والمناظرة معه ان كان في ذلك فرصة للدعاية لعلمه وفلسفته (١) .

ومن المظاهر غير المباشرة لتلك القوة ارادة العزلة حيث نلمس ابتعاد ديكارت عن فرنسا تجنبا للزيارات والاجتماعات وحبا بالهدوء والطمأنينة . ثم نراه يغالي بعد ذلك في اخفاء مقره الى حد أن مراسليه كانوا يرسلون خطاباتهم لشخص يسلمها بدوره الى ديكارت . وكان كذلك أثناء اقامته في

---

(١) رسائل ديكارت : جـ ٤ ص ٢٤٨ - ٣١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٣٠ .

هولندا يتنقل من منزل الى منزل ومن مدينة الى مدينة حتي لا يطغي على حياته معارفه أو جيرانه • وكان ديكارت الى جانب عزلتـه حذرا في كافـة علاقاته الاجتماعية • واعترف ديكارت بأن الكلام والكتابة سخرة كم كان ينهد الى التحرر منهما • وافترض أن القرود أحكم الكائنات لو صح اعتقاد المتوحشين فيهم أنهم يمسكون عـن الكلام حتـى لا يرغموا على العمل طول الوقت (١) •

ويرى بعض من أرخوا ديكارت أنه خالي من الانفعالات والعواطف ، ولكن ديكارت نفسه يرى أن الانفعال نافع ضروري ، وأنه اذا كانت بعض الانفعالات مصدر اضطراب كان بعضها مصدر قوة بنظره • ولا شك أن الغضب مضر بالنفس وفي أنه لا بد من الاستعاضة عنه بالاستنكار • كذلك كانت الكراهية في آثارها السيئة ، وكذلك كان الحـب لأنه يبعث المحب على بغض جميع الاشياء ما عدا المحبوب ، ولأنه يطغى على حياة المحب وعالمـه ويفقده على الحكم والتمييز بين الاشياء •

ولكن هناك عدا هذا الحب الانفعالي المندفع

---

(١) ديكارت : رسالته الى شانو في ١٦٤٦/١١/١ ل٥ (١٠٠٦ ـ ١٠٠٧)٥

عاطفة حب نحو الغير لا أنانية فيها • هذا هو الحب الذي شعر به ديكارت نحو أصدقاء مثل شانو والأميرة اليصابات بصورة خاصة • وقد كان اتصاله بالأميرة فاتحة مرحلة جديدة في حياته ومصدر الهام فلسفي جديد • فكانت الأميرة بدورها تسرد عليه في صدق واخلاص أحزانها وآلامها وتأثير الاشياء فيها • فوجد في دراسة أحوال الاميرة النفسية وما يتبعها من انفعالات ، وما يلزمها من علاج يبعث الطمأنينة في نفسها ، ويؤدي حتما الى اسعادها واسعاد غيرها من النفوس •

ولاحظ ديكارت وهو يغوص في أعماق انفعالات الاميرة النفسية أنه ليس بالامكان تحرر النفس من الانفعال السيء الا بواسطة قوة النفس الاصيلة • ولتلك القوة لغتها وعلاماتها العاطفية الانفعالية ، والفرح والامل والاستبشار من أهمها • وهذه بمثابة أصوات ونداءات تسمعها النفس فتقبل على توقع الاحداث ومنابهتها على النحو المناسب •

وقد شبه ديكارت نفسه بسقراط واعترف بأنه أنصت مرات الى تلك الاصوات في نفسه وبأنه لاحظ اخفاقه في بعض المناسبات لاهماله العمل حسب

الهامها ، وكان يوجس شرا من مشروع سفره الاخير الى بلاد السويد حيث مات • الا أنه كان حكيمـا بأعمق معاني الحكمة • فصوت واحد لم يكفه • وفي النفس علامات عديدة متباينة على واجباتها • وينبغي تغليب بعض تلك العلامات علـى البعض الآخر • وفي حالة رحلة ديكارت الى السويد التي أودت بحياته والتي أوجس منها شرا ما ، كان يأمل نفعا عظيما قد يصيبه من تلك الزيارة ، نفعا يناله الغير بتعلم المنهج والفلسفة الحقيقية على يديه ، ونفعا يناله هو بالذات مما ينجم عن تلك الزيارة من رعاية وترويج لمذهبه ومنهجه • وما دام في الامر آمال ومنافع وخيرات لنفسه ولغيره وهي كلها علامات للنفس القوية فلا محل للتردد في القيـام بتلك الرحلة • ومهما كان من توقعه الشر من هذه الرحلة أو تلك فهو لا يخاف شيئا • وهو لا يخشى الموت بنوع خاص بل يحب الحياة وما تجيء به من خيرات (١) • وحب الحيـاة والخوف أمـران لا يجتمعان •

والظاهر أن ديكارت مع ما كان عليه من ضعفه

---

(١) رسالة ديكارت الى مرسين في ١٦٣٩/١/٩ ل• ٨١٨ •

البنية واعتلال الصحة ، ومع ميله الواضح الى حياة الراحة والتفكير والتأمل ، كان رجلا ذا ارادة قوية لا تكل ، ونفس تواقة الى الكفاح المستمر المتواصل ، ومن المؤكد أن ديكارت لم يكد يفرغ من تخطيط رسوم مذهبه الفلسفي ، حتى وقف حياته ووجوده للقيام على نصرته والدعوة اليه مهما كلفه الامر من جهد وتضحية • فلم يترك اعتراضا الا وقد رد عليه رد الواثق العالم بقيمة أفكاره ومبادئه ، ولم يدع فرصة دون أن ينتهزها لتدعيم قواعد فلسفته ، وتقوية حجج أنصاره ، وتحطيم مراكز مخالفيه •

ومما لا شك فيه أن شخصية ديكارت من الشخصيات المعقدة غاية التعقيد ، فمن الخطأ أن يلتمس لها مفتاح واحد • فديكارت من أصحاب التأمل والنظر ، كما يقول مالبرانش ، وفارس فرنسي من أهل الفروسية الفكرية كما يقول شارل بيجي ، مولع بالمغامرات الذهنية الخالصة ، وهو أيضا رجل عمل ، محب للحياة ، ذو عناية بصحة بدنه ورفاهيته ، ثم هو رجل صاحب رسالة مشغول بنجاح مذهبه خدمة للانسانية كلها ، وهو فوق هذا كله سيد مهذب رقيق أو جنتلمان خبير بأهل زمانه،

يحلو له الحديث مع النساء ، ولا يتأخر عن مبارزة الرجال من أجل سيدة يحبها ، ولا يتحرج أن يتصل ببعض السيدات اتصالا غير شرعي ، وأن يولدهن ايلادا غير شرعي أيضا • وكنت من أهل الارستقراطية الفكرية ، يزدري المعارف والمعلومات المستخلصة من متون الكتب ، ويخصص بضع ساعات في اليوم للبحوث العلمية ، وبضع ساعات في السنة للبحوث الميتافيزيقية أو بحوث ما بعد الطبيعة •

وعلى العموم كان ديكارت رجلا مسيطرا على فلسفته وعلى علمه لا يرضى أن يستعبد نفسه لهما • وكان ناقدا حرا ، يسخر من الخرافات ، ويكره المتعالين والمتزمتين ، وكان فوق هذا كله مسيحيا ، غير مقصر في أداء فروضه الدينية ، ولا يغرب عن بالنا أنه كان من الحجاج الى «نوتردام دو لوريت» ، وأنه تلقى الوحي الاول لفلسفته في رؤيا مشهورة اعتقد أنها من عند الله ، وأنه كان أحرص الناس على الفرار من اللهو ومشاغل الدنيا ، والتماس الهدوء ليتسنى له التفلسف في محاريبه الهولندية (١) •

---

(١) ديكارت الانسان والمفكر ص ٣٣٦ •

ومن المؤكد أن ديكارت عرف في حياته جميع ضروب النصر وألوان الخذلان • والآن وقد أصبحت فلسفته انسانية تتعدى حدود المكان والزمان ، فانها ترسم صفحة ناصعة من أمجد الصفحات في تاريخ العرفان الانساني • وكانت مباديء الفلسفة الديكارتية مصدر الهام خصب لكبار العباقرة والمفكرين والحكماء في القرن السابع عشر ، ولا يزال الأب الروحي حتى عصرنا الحاضر لكافة الفلاسفة الذين جاؤا بعده ، وعبوا من رحيقه العقلاني الفاعل في الوجود والموجودات •

ديكارت ومنهجه العقلاني :

المنهج يعني الطريقة الواجب اتباعها في البحوث العقلية • والاهتمام بالمنهج والعناية به يعتبر ميزة من ميزات القرن السابع عشر ، لأن مفكري ذلك العصر كانوا مؤمنين بفائدة المنهج وأثره في العلوم وفي الحياة العامة لأبناء الانسانية جمعاء • ولقد أشار هاملان الى سبب ذلك فقال : ان أهل ذلك العصر كانوا قد ألقوا عن كواهلهم عبء الخضوع للسلطات في الفلسفة ، بل أحيانا في الفكر على العموم ، وفي المعتقد أيا كان ، فكان لا بد لهم من

شيء يطمئنون اليه ويهتدون به ، والمنهج هو الكفيل بذلك ولا غناء لفكرهم عنه (١) ٠

ويرى ديكارت أن البحث في المنهج هو أهم المشكلات وأولاها بالعناية في مهمة الفيلسوف ، وأراد أن يجعل بداية اصلاحه الفكري الظفر بطريقة للحصول على المعرفة الحقيقية ، بواسطة ذلك النور الفطري المبثوث فينا جميعا وهو نور العقل ٠ ولم يرض ديكارت عن منهج الفلسفة الكلامية ، فلسفة المدرسين ذلك المنهج الذي كان ما زال قائما في عصره ، وكان قد تلقنه أيام طلبه العلم في مدرسة لافليش ٠ وهو عبارة عن محاولة حل المشكلات الفلسفية أو العلمية بذكر طائفة من أقوال المؤلفين السابقين ، سواء كانوا معروفين أو غير معروفين ، بدلا من الاقدام على معالجة المشاكل نفسها ٠ ومثل هذا المنهج يتطلب اطلاعا كثيرا ، وقسطا كبيرا من الحذق والمهارة للملاءمة بين الآراء المتباينة والمصادر المتنوعة ، ولكن مثل ذلك المنهج ليس من شأنه أن يستحث الناس على حرية الفكر والاستقلال في البحث ٠ ولاحظ ديكارت بادىء

---

(١) هاملان : مذهب ديكارت ص ٢٢ ٠

الأمر ما كان سائدا في زمانه من اختلاف وجهات النظر وفوضى الآراء ، سواء في الفلسفة أو في العلوم أو في الدين ، حتى أننا لا نكاد نجد شيئا هو من البداهة واليقين بحيث لا يدع مجالا للمناقشة والجدال •

ومن المؤكد أن فوضى الفلاسفة ، واضطراب العلماء ، وتنازع أصحاب الدين ، مصدره أنهم جميعا يسيرون في مباحثهم على غير هدى ،ويتخبطون فيها خبط العميان ، وكان أكبر اعتمادهم في بلوغ مراميهم على مواتاة المصادفات والحظوظ ، دون أن يكون لهم في ذلك خطة مرسومة أو منهج معين : الناس مسوقون برغبة في الاستطلاع عمياء ، حتى أنهم يوجهون أذهانهم غالب الامر في طرق مجهولة ، لا تحقيقا لأمل صائب ، بل لكي يجربوا اذا كان ما يبحثون عنه شيئا حقا ، مثلهم في ذلك مثل رجل استولت عليه رغبة جنونية في أن يكتشف كنزا ما • فتراه لذلك يقضي وقته متجولا منقبا في كل مكان ، ليرى لعل أحد السائحين أو العابرين قد ترك كنزا ! (١) • وكذلك حال كثيرين من المشتغلين

---

(١) قواعد لهداية العقل : القاعدة ٤ في البداية •

بالدراسات والعلوم • لا ! ان الانسان اذا لم يكن له من قبل منهج يسير على قواعده ، سواء في الفكر أو في الحياة ، لم يصل الى الحق الا مصادفة ، ولم يدرك التوفيق الا فلتة من فلتات الظروف وموافقات الحظوظ • وخير للانسان أن يعدل عن التماس الحقيقة من أن يحاول ذلك من غير منهج !•

وكما أن حب الاستطلاع عند بعض الناس قد يسوقهم أحيانا الى الوقوع في مآزق لا مخرج منها ، فكذلك شأن من ينكبون على الدراسات من غير نظام ، لن تكون ثمرة جهودهم ومتاعبهم الا أن يفقدوا نور الفطرة والا أن يصابوا بعمى البصيرة، ذلك أن الدراسات التي تسير من غير ترتيب ونظام، وأن التأملات الغامضة والخواطر المبهمة تحجب أنوار الفطرة وتطمس بصيرة الذهن ، ومن اعتاد أن يسير هكذا في الظلام ضعف بصره ضعفا يصبح من العسير عليه أن يتحمل الضوء الساطع • وهذا هو ما تؤيده التجربة أيضا •

ونلاحظ في أغلب الاحيان أن من لم يشتغلوا بالدراسات قد يحكمون على ما يعرض لهم أحكاما أصوب وأمتن وأوضح بكثير من أحكام الذين أكثروا

التردد على معاهد التعليم • وأول مـا يلزم من أدوات التفلسف الشعور بضرورة المنهج ، ثم ايجاد ذلك المنهج بالفعل ، ثم تطبيقه على النظر والعمل، عن شعور ووعي وروية •

ويقول ديكارت : أنـا أعني بالمنهج قواعـد مؤكدة بسيطة اذا راعاها الانسان مراعاة دقيقة كان في مأمن من أن يحسب صوابا ما هو خطأ ، واستطاع ، دون أن يستنفذ قواه في جهود ضائعة ، بل بالعكس مع ازدياد علمه زيادة مطردة ، أن يصل بذهنه الى اليقين في جميع ما يستطيع معرفته (١) •

ويرى ديكارت أن العمل الذي يشترك في أدائه كثيرون ، يجيء عادة أقل كمالا من العمل الذي يقوم به رجل واحد ، وكذلك الحال في نقص معارفنـا وعلومنا • منشأ ما بها من عيوب هو كثرة المعلمين الذين نتلقى عنهم ، وتفرقهم في النظر ، وتشتتهم في المناهج ، والمنهج في الحقيقة حسب رأي ديكارت واحد في الناس جميعا • العقل السليم أعدل الاشياء قسمة بين الناس ، ولذلك كان من الخطأ أن تتدارس العلوم متفرقة متباعدة ، مع أن الاشتغال بعـدة

---

(١) قواعد لهداية العقل : القاعدة ٤ ص (ص ٣٧١ ـ ٣٧٢) •

علوم أدعى الى تجويدها وافادة بعضها من بعض . ذلك أن العلوم متآزرة متعاونة قد بلغ من تساندها أن كسبها جملة وفي مجموعها قد يكون أحيانا أقل كلفة وعناء من فصل بعضها عن بعض ودرس كل منها على حدة .

ولما كان العقل البشري بمفهوم ديكارت واحد لا يتغير مهما تتنوع الموضوعات التي يخوض فيها ، فهو لا يحتمل القيود والفواصل ، التي يضعها الناس تعسفا ، فموقف ديكارت هنا يخالف موقف العلماء المتخصصين كما نقول اليوم ، اذ ليس للعلوم ولما تحوي من معلومات جزئية من قيمة في نظر الحكيم الا بانتسابها الى شيء واحد يشترك الناس فيه . وهو العقل السليم أو الحكم الصريح (١) .

ويذهب ديكارت أنه اذا تقرر أن الحكمة البشرية واحدة ، وأن الذهن البشري واحد والعقل واحد ، لا بد وأن يكون هنالك الا علم يقيني واحد ، ومنهج واحد لبلوغ الحق في مختلف الامور . ولا بد من أن نتساءل أين نجد ذلك العلم وذلك

---

(١) مؤلفات ديكارت ص ٣٦٠ .

المنهج الواحد ؟ يقول ديكارت : ليت تجدينا الدراسات التي لا نكتسب منها الا آراء محتملة • والجهل التام خير من المعرفة المزعزعة المضطربة ، ولا يكون العلم علما الا اذا كان يقينيا • لأن العلم معناه البداهة واليقين لا الارجاف والتخمين ، ونموذج تلك البداهة وذلك اليقين هو العلم الرياضي بلا نزاع • والمنهج المطلوب هو المنهج الرياضي ، باعتباره منهج طبيعي للفكر ، يدلنا اليه تفكير المشتغلين بالعلوم الرياضية • ونجاح العلوم الرياضية وتفوقها على غيرها ناشيء من أن موضوعاتها بسيطة ، وأن العقل البشري أوجدها مقتبسا اياها من ذاته دون أن يدين للتجربة بشيء، ثم سار فيها بخطى موفقة ، لأنه لم يصطنع الا معاني وتصورات واضحة لا غموض فيها •

ويقول ديكارت : لم أجد كبير مشقة في أن أبحث عن أي الاشياء ينبغي البدء بها • لأنني كنت أعرف من قبل أن بدأنا يكون بأبسط الاشياء وأيسرها معرفة ، واذا رأيت أن من بين جميع من سبقوا في طلب الحقيقة في العلوم انما استطاع أصحاب الرياضة وحدهم أن يجدوا براهين،أعني استدلالات

يقينية بديهية ، لم أشك في أن بحوثهم كانت جارية على ذلك المنهج نفسه ٠

ويلاحظ ديكارت أن قصد الفيلسوف ليس هو تعلم الرياضة لذاتها ، أو لايجاد خصائص أعداد عقيمة وأشكال وهمية ، بـل لتعويد الذهن على مناهج وطرائق ينبغي أن تتسع وتمتد الى أشيـاء أكبر أهمية وأكثر قيمة ٠ فالرياضيات اذن هـي ثمرة المنهج عند ديكارت ، وليست هي المنهج نفسه، والناس جميعا يعلمون أن المعرفة التي تقنع الفكر وتشفي غليله انما هي المعرفة الرياضية - لقد كان أفلاطون محقا حين حرم الاشتغال بالفلسفة علـى أولئك الذين لم يكن لهم بالرياضيات معرفة ٠وهذا التحريم الافلاطوني هو بمثابة التصريح بضرورة المنهج ٠

والفلسفة كما يراها ديكارت مجهود لنشر المنهج الرياضي وامتداده الى مجموعة المعارف البشريـة التي ليست هي نفسها الا استعمال العقل استعمالا حسنا ٠ ذلك هو المنهج الكلي الشامل ، وهو ممكن التحقيق ، لأن العقل الصريح لا يتردد في اختيار موضوعه ، وكل شيء يصلح أن تكون له موضوعا ،

سواء أكان طبيعة أو انسانا · وليست العلوم جميعا الا العقل البشري الذي يبقى هو دائما بعينـه ، مهما تتنوع الموضوعات التي يبحثها ، دون أن يغير ذلك الاختلاف من طبيعته أكثر مما يغير اختـلاف الأشياء من طبيعة الشمس التي تلقي على الاشياء نورها (١) ·

ويبدو من كل هذا أن ديكارت لم يهدف منهجا يقتصر تطبيقه على علم واحد كالرياضة ، بل أراد منهجا عاما يمكن تطبيقه على كافة العلوم ، وهذا ما يدل عليه عنوان كتابه « المقال في المنهج لاحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم » · فان الذهن اذ اعتاد مطالب المنهج الصحيح استطاع أن ينقلها الى مجالات أخرى غير العلوم الرياضيـة ، واستطاع أن يتصور امكان الرياضيات الكلية ·

وربما تكون تلك محاولة خيالية في باديء الامر، اذ أن من المحال رد كل شيء الى الحساب ، وتحويل المشكلات الاخلاقية أو الميتافيزيقية الى معـادلات جبرية ، ولكن من الممكن مع ذلك أن تعالج المشكلات

---

(١) قواعد لهداية العقل : القاعدة ١ ص ٢ ·

المختلفة معالجة رياضية ، وما الحساب في الحقيقة الا الأداة التي يستعملها علم الحساب أو علم الجبر لحل المشكلات الخاصة بهما • والذهن الذي ينحو نحو الحساب ، لحاجته اليه في ظرف من الظروف ، ليس ملزما مع ذلك أن يستعبد نفسه للحساب • واذا كان للعلوم الرياضية يقين لا خلاف فيه فيقينها آت لا من طرائق الحساب التي تعمد تلك العلوم اليها ، بل من البداهة التامة ، بداهة المعاني التي تصطنعها ، ومن الترتيب الذي يجري عليه تسلسل تلك المعاني •

وحتى نتمكن أن نضفي على أي علم يقينا يساوي يقين علم الحساب أو علم الهندسة ، يجب أن لا نشتغل الا بالمعاني الواضحة المتميزة ، وهي التي مضمونها بديهي تام البداهة ، وأن نرتب جميع معانينا ، أي أن ننظمها في نسق خاص ، بحيث يكون كل معنى منها مسبوقا بجميع المعاني التي يستند اليها ، سابقا لجميع المعاني التي تستند اليه • ولا بد لنا من طرح للافكار الصادرة عن السلطات أيا كانت ،فلسفية أو اجتماعية أو سياسية أو دينية ، لأنها في غالب الامر أشد الافكار ميلا مع الهوى وأكثرها متابعة للنزوات الطارئة وأبعدها

عن مرتبة اليقين ، ثم لا بد لنا من ترك الآراء التي تهتف لها الجماهير ، ولنعلم أنه ليس ينفعنا في تمييز الحق من الباطل في الآراء أن نحسب الاصوات لكي نتبع ما يحوز منها أكبر عدد . فان اجماع الكثرة من الناس لا يكون دليلا يعتز به لاثبات الحقائق التي يكون اكتشافها صعبا ، ولنطرح كذلك شهادة التجربة الحسية ، لأنها خداعة ، واذا أمكن أن تخدعنا حينا ، فمن الممكن أن تخدعنا دائما ، ما دمنا لا نجد لها ضابطا يوثق به .

ولا بد لنا أيضا من طرح تلك الاساليب والطرائق في منطق أرسطو الذي شاع في القرون الوسطى ، وتلك الاقيسة المنطقية التي تفرض الشيء الذي يطلب البحث عنه ، والتي لا تصنع شيئا أكثر من أن تعرقل حركة الذهن الطبيعية ، لأنها تديره دورانا آليا ، وتعفينا من التفكير ، ولا تساعدنا على اكتشاف الحق .

وما دمنا قد استبعدنا من اعتبارنا آراء السلطات ، والافكار المشهورة ، وشهادة الحواس ، وطرائق الاقيسة القديمة ، فلم يبق لدينا الا أن نحلل طرائق ذينك العلمين الرياضيين اللذين

يعترف جميع الناس بما لهما من متانة واحكام • ولنحلل طرائقهما ، لا بقصد تطبيقهما كما همـا على مسائل لا تحتمل ذلك التطبيق ، انما حتـى نستخلص منهما أهم ما يصنعه الذهن في جميـع خطواته المنهجية ، ولنتعرف ما اختص به الذهن من أفعال هي بمثابة الشروط العامة الكلية التي تسود جميع الطرائق الحسابية أو الهندسية ، وأكبـر الظن أنها أفعال شديدة البساطة ، قليلة العدد ، وفي رأي ديكارت ان جميع الافعال الذهنيـة التي نستطيع بها أن نصل الى معرفة الاشياء دون أن نخشى الزلل عبارة عن فعلين اثنين هما الحـدس والاستنباط •

والحدس بالنسبة لما يلاحظه ديكارت هو الرؤية العقلية المباشرة التي يدرك بها الذهن بعض الحقائق التي تذعن لها النفس وتوقن بها يقينا لا سبيل الى دفعه • الحدس اذن نظرة عقلية بلغت من الوضوح والتمييز أن زال معها كل شك • وذلك الفعـل بحسب مفهوم ديكارت عقلـي ، كونه لا يتعلـق بالحواس ولا بالخيال ، وانما يختص بالذهن ، بل الذهن الخالص الصافي ، ويقول ديكارت : أقصد بالحدس ، لا شهادة الحواس ـ وهي متغيرة ـ ولا

الحلم الغداع حكم الخيال •• وانما أقصد به الفكرة المتينة التي تقوم في ذهن خالص منتبه ، وتصدر عن نور العقل وحده • فالحدس الديكارتي هو عمل عقلي يدرك به الذهن فكرة ما ، من تصور أو حكم أو استدلال ، بفهمها بتمامها في زمان واحد لا على التعاقب ، ويوازي ديكارت بين الحدس والاستنباط الذي لا يتم بتمامه في زمان واحد ، ولكنه يقتضي حركة من حركات الذهن، اذ يستنتج من شيء شيئا آخر •

وبالحدس يستطيع كل واحد أن يعلم أنه موجود بالضرورة لأنه يفكر ، وأن المثلث شكل محدود بثلاثة أضلاع ، ويعلم حقائق أخرى كثيرة قد تخفي علينا معرفتها ، لأننا لا نلقي بالنا اليها لبساطتها ، والحقائق التي من هذا القبيل نستطيع أن نصل اليها بفضل ما لها من بداهة ذاتية ، ولذلك أطلق ديكارت على الحدث ، النور الفطري ، والغريزة العقلية ، التي نكتسب بها المعارف الكافية لاثبات قضايا عديدة •

ويعتقد ديكارت أن الحدس لا يقتصر على المعاني والافكار ، بل يتناول حقائق لا قبل لنا

بالشك فيها ، كما يتناول الطبائع البسيطة ، وهي الخواص الطبيعية المجردة التي لبساطتها تدرك بالذهن ادراكا مباشرا ويمكن أن تستخلص منها جميع الطبائع الأخرى : مثال ذلك الوجود والوحدة والامتداد والحركة والشكل والزمان والمكان ، وكذلك أفعال المعرفة والشك ، والارادة ٠والطبائع البسيطة طبائع قد بلغت معرفتها من الوضوح والتميز مبلغا يمنع الذهن من تقسيمها الى أخرى أكبر تميزا منها ٠ وادراكنا للطبائع البسيطة معصوم من الخطأ ، لأن الفكرة في ذاتها دائما صحيحة ، والخطأ لا يكون في الفعل الذي يرى الذهن به ، بل في الفعل الذي به يحكم (١) ٠

والحكم عند ديكارت لا يعود الى العقل وحده ، بل الى الارادة ، والحكم حر ، ومن أجل هذا كان الخطأ منسوبا الى الانسان الذي يستطيع أن يستعمل حريته استعمالا سيئا ، كما لو ألف بين أفكار لا ارتباط بينها في الحقيقة والواقع (٢) ٠

---

(١) ديكارت : قواعد لهداية العقل : القاعدة ١٢ ، التأملات ، التأمل الرابع ٠

(٢) نفس المصدر القاعدة ٣ ص ٣٦٩ ٠

والوسيلة الثانية لبلوغ اليقين الرياضي هـي الاستنباط ، وهو قوة نفهم بها حقيقة من الحقائق نتيجة حقيقة أخرى أبسط منها • وهو فعل ذهني بواسطته نستخلص من شيء لنا به معرفة يقينية نتائج تلزم عنها ، أو عملية تنتقل من الواحد الى الآخر ، ومن حد الى الحد الذي يليه أو الذي يلزم عنه مباشرة وضرورة ، ثم من الثاني الى الثالـث وهلم جرا •

والاستنباط حسب المفهوم الديكارتي يختلف عن القياس في منطـق أرسطو ومنطـق القـرون الوسطى • ذلك أن القياس القديم رابطـة بـين أفكار • بينما الاستنباط رابطة بين حقائق • ثم ان علاقة الحدود الثلاثة في القياس خاضعة لقواعد معقدة تطبق بطريقة آلية لمعرفة الأقيسة المنتجة وغير المنتجة ، بينما الاستنباط يعرف بواسطـة الحدس معرفة هي من البداهـة بحيث أن أقـل الأذهان أهلية للاستدلال لا يمكن أن يسيء القيام به • ويمتاز القياس بعلاقات ثابتة سواء أدركت أم لم تدرك ، لكن الاستنباط حركة فكرية موصولة ، حركة فكر يشاهد الاشياء واحدا بعد الآخر رؤية بديهية • ولا مكان في الاستنباط لدى ديكارت الا

لقضايا يقينيــة ، في حين أننــا نشاهد القيــاس الأرسطاطالي يفسح المجال لقضايا احتمالية وظنية كما في الاقيسة الجدلية والخطابية ·

وليس الدور الهام الذي يقوم به الاستنبــاط وفق منهج ديكارت بأوثق من الحدس ، اذ لا بد من نقطة ينطلق منها الاستنباط ، والحدس هو بمثابة تلك النقطة · مما يدل على أن الاستنباط أقــل متانة من الحدس ، باعتبار كل استنباط يحتاج الى زمن ، وهو بهذه المثابة محتاج الى استعمال الذاكرة التي قد تخون الانسان في بعض الاحيان ·

ويقين الحدس آت قبل كل شيء من أنه عقلي وهو مشارك للاستنباط ، ولكنه يختص بأنه يتجه الى شيء بلغ تصورنا اياه من البساطة والتمييز أن امتنع على أي ذهن أن يكون محتاجا الى تعلمــه ، وامتنع عليه أن يسيء القيام به ·

ويعود هذان الفعــلان الرياضيــان الحــدس والاستنباط الى فعل واحد ، باعتبار أن الاستنباط سلسلة حدوس · وكل ذهن قادر على القيام بهما بالفطرة من غير تعلم ، وهما العقل الصريح نفسه

الذي هو أعدل الاشياء قسمة بين الناس •

قواعد منهج ديكارت :

أورد ديكارت في كتابه « قواعد لهداية العقل » احدى وعشرين قاعدة • ولكنه مات قبل أن ينجز هذا الكتاب ، ويعتبر هذا الكتاب من أعمق وأروع رسالة منطقية عرفتها الفلسفة في كافة مراحلها ، ولكن ديكارت عندما كتب « المقال في المنهج » عدل عن ذلك العدد الضخم من القواعد ، اذ تبين له كما يبدو أن علم المنطق القديم انما يقف حائـلا عن دراسته واستيعابه كثرة ما يتضمنه من قواعد ، وأن رؤساء الدولة بامكانهم أن يحكموها بعدد قليل من القوانين ما داموا حريصين على مراعاتها مراعاة دقيقة ، لذلك اكتفى ديكارت بالاتيان على ذكـر أربع قواعد بسطها في « المقال في المنهج ، وأولاها متصلة بالحدس والثلاث الأخر متصلة بالاستنباط• والغاية من هذه القواعد الاربع أن تصف النحـو الذي يعمل الذهن عليه حين يفكر تفكيرا رياضيا • وهي :

١ ــ أن لا أتلقى على الاطلاق شيئا على أنه حق

ما لم أتبين بالبداهة أنه كذلك ، بمعنى أن أبذل الجهد في اجتناب التعجل وعدم التملق بالأحكام السابقة ، وأن لا أدخل في أحكامي الا ما يتمثل العقلي في وضوح وتميز يزول معهما كل شك ٠

٢ ــ أن أقسم كل واحدة من المعضلات التي أبحثها ما استطعت الى القسمة سبيلا ، وبمقدار ما تدعو الحاجة الى حلها على أحسن الوجوه ٠

٣ ــ أن أرتب أفكاري ، فأبدأ بأبسط الأمور وأيسرها معرفة ، وأتدرج رويدا رويدا حتى أصل الى معرفة أكثرها تعقيدا ، بل أن أفرض ترتيبا بين الأمور التي لا يسبق بعضها البعض الآخر بالطبع ٠

٤ ــ أن أعمل في جميع الاحوال من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الوافية ما يجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئا يتصل بالمشكلة المعروضة للبحث ٠

والقصد من المنهج الديكارتي أن يهدي العقل المستقيم ٠ والقواعد التي قال بها ديكارت والتي تنص على أن لا نقبل الا البداهة ، وعلى أن نبدأ دائما بالأسهل ، والأوضح ، وعلى أن نتبع في

بحوثنا ترتيبا ونظاما ثابتا • هي في الواقع والحقيقة قواعد الذهن المستقيم ، فكل ذهن مستقيم هو بالطبع ذهن ديكارتي •

ديكارت وما وراء العلم :

لعالم الظواهر الطبيعية وحدة تغلب على اختلاف الظواهر وتنوعها ، وحدة يفرضها العقل العلمي ، لغاية معرفة العالم ، وحدة علم ومعرفة ومنهج ، لا وحدة جوهر أو وجود • ان نظرة العلم الى الظواهر الطبيعية أعمق النظرات عن الجوهر والوجود • ولكن هناك أمورا يقررها العقل العلمي ، وهي القوانين الصارمة التي تخضع لها الظواهر أيا كانت ، والتي تهييء الانسان الى السيادة عليها • وفي تلك الظواهر حقيقة ، وان لم يكن فيها جوهر أو وجود •• في الطبيعة حقيقة رياضية يعرفها العالم بمجرد البصيرة والاستدلال ، حقيقة مصطنعة مفتعلة الى حد بعيد ، لكن مبادءها في النفس راسخة ثابتة ، وعناصرها ماهيات ،قائمة أمام البصيرة الذكية الصافية • ومهما كان من السلطة والسيطرة على الظواهر ، فازاء تلك القوانين والمباديء والماهيات ، كانت العقول ناظرة

مسجلة ، مقررة فقط · وعلى أساس هذا النظر نبني العلم الصحيح والعمل الناجح ·

للطبيعة اذن حقيقة رياضية ، يخضع لها العقل الانساني ، ويسير بموجبها في علمه وعمله ، مشكلة من مباديء المنطق والرياضيات والقوانين الثابتة للحركة ، ومن الماهيات والطبائع الثابتة التي تعمل منها تلك المباديء وتلك القوانين ، حقيقة يدركها الانسان ببصيرته ، ولم يصنعها بعقله واستدلاله ، ولا يستطيع فيها تغييرا أو تبديلا ، حقيقة ثابتة أبدية ·

هذه الحقيقة التي يستطيع الانسان أن يبتدعها، هي هي حقيقة مطلقة ؟ هل هي حقيقة أولى يخضع لها كل عقل ؟ وهل يكون موقف كل عقل ازاءها موقف الناظر المسجل ؟ هذا هو السؤال الذي طرحه صديق ديكارت مرسين في عام ١٦٣٠ بصدد رأي طالعه في كتاب من الكتب · ويقود هذا الرأي الى أن الله خاضع لضرورة مطلقة ، لضرورة الحقائق الرياضية والمنطقية ·

ويجيب ديكارت على هذا السؤال في رسائل

ثلاثة من أهم رسائله الفلسفية ، كتبها على التوالي في ١٥ أبريل وفي ٦ مايو وفي ٢٧ مايو سنة ١٦٣٠ يقرر فيها أن العقل الالهي لا يخضع لتلك الحقائق، كما يرى أن تلك الحقائق ليست موضوعات خارجة عنه ، مفروضة عليه ، وأنها ليست مع ذلك جزءا منه ، لأن الكل من الاجزاء ــ ولا فارق في المرتبة بين الكل والاجزاء ، بل أنها لا تنبعث منه ، ولا تصدر عنه ، كما يرى أفلوطين ، كما تصدر الاشعة من الشمس • لأن الذي صدر ، رغم أنه دون هذا الذي صدر عنه ، انما صادر بالضرورة ، ولا مرد لصدوره وفيضه • فهو مرتبط ضرورة بالذي صدر عنه ، كما يرتبط هذا الاخير به • وهو ما يمتنع تصوره في الله ، الذي لا يخضع لشيء ، ولا يرتبط بشيء ، والذي يخضع له كل شيء • اله ديكارت ، غير آلهة اليونان ، لا يخضع مثلها لقضاء أو قدره انما هو ما يخضع له كل قضاء أو قدر ، وما يحوي القضاء والقدر من حقائق أو ضرورة ، هذا ان صح للقضاء والقدر اعتبارا ووجودا •

وكيف تخضع لله الحقائــق والقوانين التـي يقررها العلم ؟ اننا نعلم معنى واحدا للخضوع ، ولا نعلم غيره ، وهو خضوع المخلوقات للخالق ،

فالله خلق هذه الحقائق ، وصنعهـا كما خلقنـا وصنعنا ، خلقها بكونه أرادها وفهمها من الأزل • ولا صحة لادعاء البعض أن العقل في الله سابق على الارادة ، فلا سبق زمني أو منطقي في الله • انما يريد الله ، ويعلم ويفهم في نفس اللحظة ، وبنفس المعنى ، وفي وحدة كاملة مطلقة • وهذا المعنى يجاوز فهمنا • ان الله غير مفهوم لنا نحن المخلوقات • هذا لأنه القادر المريد ، ولأن قدرته لا يحدهـا شيء ، كما أن حريته لا يفسرها أو يعينها شيء • فهو كان قادرا على عدم خلق العالم • وان بدت لنا هذه الاقوال غير معقولة ، فلأننا لا نفهم سرها ، ولأننا لا نفهم القدرة الالهية ذاتها ، وهي صفة الله العليا •

وهناك علاقة واضحة على خضوع الحقائـق الابدية لله ولقدرته : أننا قادرون على فهمهـا ومعرفتها • فتلك الحقائق لا تسمو بكثير علـى المستوى الانساني ، والا ما فهمهـا الانسان ولا عرفها • وما كان في مستوى الانسان مفهوما له ، معلوما لديه ، فهو مخلوق مثله ، خاضع لقدرة الله وحده •

هذا هو رأي ديكارت في السؤال الذي طرحه عليه صديقه مرسين • وقد يلاحظ أن في هذا السؤال مفاجأة لديكارت لأنه سؤال في موضوع فلسفي شائك ، ولأن ديكارت لم يعلن حتى ذلك الوقت فلسفته ، وربما لم يكن قد بدأ فيها • أما اجابة ديكارت على السؤال ، فهي أيضا مفاجأة لصديقه مرسين ، لما تضمنته هذه الاجابة من مواقف خطيرة ، ولأن ديكارت يقول بأن السؤال الموضوع له ، ليس غريبا عنه ، وأنه مرتبط في نظره بالمسائل الفلسفية الرئيسية التي اشتغل فيها ، حسب رأيه ، أشهرا كاملة ، وكاد يكون اعتقاده فيها ، وان لم يعبر عن هذا الاعتقاد تعبيرا نهائيا • واعتقاده بوجه عام ، أن الفلسفة ، اذ تعتمد قبل كل شيء ، على معرفة الانسان لذاته ولله ، تقوم على اثبات وجود الله • ويفخر ديكارت بأنه قد وصل الى دليل على هذا الوجود يحاكي في دقته أدلة الهندسة •

ويلاحظ لمن يعرف رأي ديكارت في طبيعة الحقائق العلمية وفي أصلها وفي خلق الله لها ، أن فلسفة ديكارت تبدأ بالشك • لا الشك في قدرات الانسان الحسية أو العقلية فحسب ، بل الشك في العلم ويقينه ، وفي موضوعات العلم وحقائقه ،

أيا كانت ، ومهما كانت ترتيبها في اليقين • ومن جهة أخرى : بما أن تلك النظرية تعتبر العلم وموضوعاته وحقائقه كما لو كانت في تصرف الانسان ، لأنها مخلوقات مثله ، ولأنه يستطيع استخدامها في تقدم علمه وفي انشاء صناعته ، فتلك النظرية تعد الانسان الى الرجوع الى نفسه ، والى تعرف مرتبته في الوجود ، بين اله القدرة السامية وبين موضوعات العلم وحقائقه • وعندما يعرف الانسان مركزه هذا يستطيع أن يصبح فيلسوفا : فالفلسفة كما يرى ديكارت ليست الا معرفة الانسان لذاته ولله (١) •

ديكارت من الشك الى اليقين :

دأب الفلاسفة والعلماء على اشعال نار الاختلافات في الافكار والآراء مع رجال الدين ومن ينافح عن أفكارهم الدينية في الامور العقلانية الكبرى ، وذلك في العصر الذي عاش فيه ديكارت ، وبالفعل ظهر عجز هؤلاء عن تقديم الحلول التي تركن اليها العقول ، وتطمئن اليها النفوس التواقة

---

(١) ديكارت : المقال في المنهج ل.° ص ٩٢ •

الى سبر أعمــاق الحقيقــة الفاعلــة في الوجــود والموجدات ٠

واذا كان الحكيم قد رفض أن ينشد الحق الذي لا خلاف فيه ، وأن يفتش عن اليقين الذي يستطيع أن يقيم عليه صروح العلم ، فقد قرر أن يرفض جميع المذاهب القائمة ، وأن يغض الطـرف عن الماضي ، وأن يشك في كل ما تعلمه من قبل ، وأن يمضي في هذا الى أبعد حدوده ، مصمما على أن يبدأ النظر كله من جديد ، لعله يجد أصولا أخرى يقينية تصلح أساسا لكل معرفة ممكنة ٠

ونــلاحظ أن ديكــارت في « التأمــلات » وفي « المباديء » لا يبحث عن موضوعات خارجــة على النفس بعيدة الموطن عنها ، ولا عن هواد تصلح لبناء العلم وانشائه ، انما عن مباديء في النفس ذاتها ، مباديء أولى يقوم فيها اليقــين النظــري المطلق ، اليقين العاصم من الاخطاء ٠ وهذا البحث يعني بنظر ديكارت الشك في كل ما احتمل شكا أي في كل ما لم يتمتع بمزية اليقين المطلقة ٠ فالشك خطوة أولى في التأمل الفلسفي ، وخطوته الفعالة الاساسية ٠ فان أدى الى المباديء الأولى كان الطريق

سالك الى اليقين الفلسفي • والشك ذاته تأمل قائم في الزمن ، فله بالضرورة مراحل تنتظم من الاسهل الى الاصعب ، تؤدي في نهايتها الى نتيجة قد تكون سلبية نقف عندها ، وقد تكون ايجابية تفتح أمامنا الطريق الى اليقين الفلسفي الكامل (١) •

والشك خطوة ضرورية لا بد من اتخاذهـا : فخبرتي بالخطأ وتعرضي له منذ عهد بعيد واحتمال تجدده بفعل تلك الاحكام التي خضعت لها ولم أتبين صحتها ، سواء كانت أحكاما فرضها الغير علي من معلمين أو مرشدين أو من وكل اليهم أمري ، أم أحكاما فرضها علي الحس والخيال ـ وتعرضهمـا للخطأ معروف ـ ان كل هذا يدعوني الى الشك •

ويرى ديكارت أن الشك يلزم في جميع مصادر تلك الاحكام : فيما بقي في نفسي (٢) من علـم تلقيته في الماضي ، وفي هذا الماضي كله ، في الحواس والخيال ، أيا كانت تعاليمها • اذ لو خدعتني هذه الاشياء مرات ، فما الذي يمنعها من أن تخدعنـي

---

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة المقدمة ل (٤٢٤) •

(٢) التأمل الاول : ديكارت ص ١٢١ •

دائما ؟ علي اذن اتخاذ خطة الشك • وما معنى خطة الشك بالضبط ؟ ليس معناها التردد في قبول حكم من الاحكام أو التأرجح بين القبـول والرفـض والاستمـرار في هـذا التردد والتأرجح • وليس معناها مجرد افتراض حكم من الاحكام أو تصوره أو التفرج عليه ان صح القول • ان معناها عدم التردد أي العزم على عدم اعتبار هذه الاحكـام وعدم الاهتمام بها وبمرتبتها من الخطأ أو الصواب• فأي اهتمام من هذا القبيل ، أي تقدير لمرتبـة الاحكام من الصدق والكذب ، لعب بالنار وتعريض اليقين الى الدمار • ان الشك هو العزم على عدم الالتزام بالأحكام المذكورة ، سواء كانت صادرة عن تعاليم ماضيه لم نتبين صحتها أو عن الحس أو عن الخيال •

ويؤيد سلامة خطتنا ما يطرأ لنا في النوم من أحلام • فقد تمثل لنا أثناءها أشياء لا تقل قوة وحيوية عن موضوعات اليقظة ، الى حد أنه يكاد يكون من المتعذر ايجاد تمييز قاطع بين أحوال النوم واليقظة (١) • وان كان الامر كذلك فما يدرينا

(١) ديكارت : التأمل ص ١٢٢ •

ان لم يكن هذا العالم المحسوس الذي نعيش فيه أثرا من آثار الخيال الخداع ، أثرا أقوى واثبت من جميع أحلام النوم ؟ ولا عبرة بما يقال من أن أوجه الحياة العملية تؤيد أحداث اليقظـة وتنكر أحلام النور • اذ لا يكفي في ميدان اليقين النظري الفلسفي أن نلتجيء الى معايير الحياة العملية •

ولكن الانسان ليس كائنا حاسا متخيلا متذكرا فحسب ، انه كائن ناطق أيضا يعتمد على عقله ، في التبصر والاستدلال • ومن المتفق عليه أن هناك علما واحدا على الاقل يبدو فيه ذلك الاعتمـاد ضامنا للانسان من الخطأ وهو العلم الرياضـي • ولكن التجربة لا تؤيد ذلك الاتفاق تمام التاييد • فكم من مرة أخطأنا بل أخطأ أبرع الرياضيين في براهين هذا العلم ؟ وان حدث ذلك مرات فمـا يدرينا أنه لا يحدث دائما ؟ أليس من الحكمة اذن أن تتخذ خطة الشك ازاء الاحكام الرياضية ذاتها وأن نقرر عدم الالتزام بها ؟ (١) •

وقد يبدو في هذا الموقف مغالاة وتكلف بعيدان

---

(١) ديكارت : المقال في المنهج ﻫ ٤ ص ١١٢ •

لا يقبلهما عقل متزن ، اذ حتى لو سلمنا بأن موضوعات العالم المحسوس مؤلفة يدخل الخيال في تأليفها ، وبأنها تحتوي على كيفيات كاللون والصوت والطعم والرائحة التي لا نتصورها تصورا جليا ، حتى لو سلمنا بهذا الا أنه لا يمكننا أن نسلم بأن طبائع مثل الامتداد وما يتبعه من شكل وعدد وحركة لا تحتمل علما وثيقا • ان هذه الطبائع موضوع تفكير واضح ، ولكل واحدة منها فكرة واضحة في النفس • وان كان من المحتمل أن يكون العالم المحسوس ، عالم اليقظة والعمل من آثار الخيال ، فلا يمكن افتراض عدم وجود امتداد في العالم أو شكل أو حركة ، بما أن جميع هذه الاشياء موضع تفكير واضح متميز (١) •

ولكن هذا الافتراض ممكن ومحتمل وقوي الاحتمال أيضا • اذ في نفسي فكرة عن اله أوضح ما يوصف به القدرة الكاملة اللامتناهية ويستطيع أن يبتكر عالما خياليا لا وجود له ، يصدره فينا ويظهره لنا على النحو الذي تصدر عليه أخيلتنا الانسانية أحلاما تملأ نفوسنا بمشاعر الخوف كما

---

(١) ديكارت : التأمل الاول ص ١٦٣ • مبادىء الفلسفة : الجزء الاول فقـرة : ٥ •

تبعث فيها مشاعر الامل والرجاء • انه يستطيع ذلك وأكثر من ذلك • فهو قادر على أن يظهر أمام أعين عقلنا امتدادا هندسيا وتغيرات فيه وعلاقات عددية ، وان لم يوجد في العالم شيء من ذلك ، كما يستطيع أن يتسلط بقدرته على أقوى العقـول فيجعلها تخطيء حتى في حكم البراهـين وأوضح البصائر •

وان صح ذلك ألا ينهار العلم الطبيعي مـن أساسه ؟ ألا تختفي الموضوعات ومعها كل يقـين طبيعي موضوعي كنا نعتز به في الماضي ؟ الا أن افتراض اله خداع مثل هذا من الامور التـي لا تسيغها النفس ولا تقبلها لسببين واضحين وهما : أن خطة الشك التي اتخذناهـا تتعـارض وهـذا الافتراض ثم أنه لا يمكن التوفيق بين فكرة هذا الكائن الخداع وبين فكرة الله التي انطبعت عليها نفوسنا سواء صدقت هذه الفكرة أم كذبت • لكن هذين السببين رغم وجاهتهما لا يكفيان لاقصـاء خطر الخداع على الانسان ولا يغنيانه عن الدفاع عن نفسه بفضل خطة الشك المذكورة • وان صح أننا لم نتثبت بعد من وجود اله هو أصل وجودنا فمهما كان من طبيعة هذا الاصل وسواء اعتبرناه

الها أو أرجعناه الى القضاء والقدر أو الى ضرورة عمياء أو الى قدرة خفية في نفوسنا ، فان أي واحد من هذه الفروض لو تحقق لن يقضي على قابليتنا للخطأ ولن يثنينا عن اتخاذ خطة الشك والاعتماد عليها ٠

ومن جهة أخرى ان صح أن افتراض اله قادر على خداعنا لا يتفق وفكرة الله التي طبعت عليها نفوسنا ـ فاننا نتصوره بفطرتنا كائنا كله خير وطيبة ـ اذا صح هذا ، أمكن افتراض كائن روحي دون الله في كماله ولكنه قوي ماكر لا تقل قوته عن مكره يستطيع أن يسيطر على أنفسنا ويخدعها في أبسط الامور وأكثرها تعقيدا وأن يظهر لنا ما كان صادقا كأنه كاذب والعكس ٠ وان كنا معرضين لسيطرة مثل هذا الكائن فهل يمكن بعده تأكيد أي شيء في العالم أو في علمنا ؟ وهل هناك بعد ذلك أرض أو سماء أو حيوانات أو بشر ؟

لقد افترض ديكارت هذا الفرض الغريب ولم يحاول ديكارت أن يقدم ضده أي اعتراض كما فعل عندما فرض الاله الخداع ٠ ولا ندري ما هو الهدف من فرض الشيطان الماكر ؟ وما معنى تدخله

في ميدان لا بد أن تكون حدوده ومعانيه واضحة كل الوضوح ؟ وهل « الشيطان الماكر » يحمل مفهوم التجربة الفلسفية الانسانية ؟ وليس نحن في هذا الموقف نتعرض لاعتقادات دينية في الشيطـان أو الروح الخبيث الذي يمسك بتلابيب الانسان ، كما كانت تتسلط أرواح الشياطين على المرضى الذين كان يعالجهم الانبياء والرسل · ولكننا تجاه فرض اتخذه ديكارت للمضي في شكه الى أبعد الحدود ، الى الحد الذي تصبح معه خطة الشك ذاتهـا غير معقولة ؟ ولكن كلام ديكارت لا يجسد هذا المعنى على الاطلاق · ويظهر أنه كان جادا في فرضه ، دون أن يقصد الكلام عن شيطان حقيقي ·

ومن المؤكد أن ديكارت لم يذكر « الشيطـان الماكر » في أي كتاب من كتبه لا في « المقال عـن المنهج » ولا في « مبـادي الفلسفـة » · أمـا في « التأملات » فقد ذكر هذا الفرض في مجال اليقين باعتباره الاله الخداع ، أليس من الممكن أن يكون الخطر الحقيقي الذي يتعرض له اليقين والعلـم صادرا عن القدرة الالهية ؟ ألا يصدر شكا أولا وآخرا عن اعتقادنا بوجود اله قوي قادر الى حـد نصبح معه معرضين طول الوقت الى الخداع في كل

شيء ؟ فالله القادر بارادته وحريته الكاملتين على الخلق وعدم الخلق قادر بالأولى على أن يحملنا على الاعتقاد بوجود عالم محسوس وعلى تصور عالم معقول ، دون آن يكون شيء من ذلك موجودا ·

وليس الشك المطلق الذي أراده ديكارت الا التعبير الفلسفي عن نظرية خلق الحقائق الابدية· بل ان فرض « الشيطان الماكر » الذي بلغ به ديكارت في « التأملات » قمة الشك ليس الا بديلا لفرض اله قادر على خلق الحقائق خلقا ، وقادر على اعدامها ·

والشك عند ديكارت على الرغم مما يمكن أن يوجه اليه من انتقادات ، شك نافع ، واذا استخدم في حيطة وتبصر كان منهجا مشروعا لا غبار عليه ، بل الأولى أن يقال انه منهج مفروض على كل فرد جاد - لأنه اذا وجب أن لا نقبل الا ما تبينت صحته بالبداهة ، فقد اتضح أن أول واجبات الفيلسوف هو أن يشرع في فحص أفكاره وآرائه ووسائله في المعرفة ، لكي يتبين قيمها ومسوغاتها ·

النفس عند ديكارت :

يستدل مما قدمناه من آراء ديكارت الناهدة الى

اتباع نظام أسباب المعرفة ، لا نظام المواد والموضوعات المدروسة . وهذا يعني يمكن عرض تلك الفلسفة في أسلوب اكتشافها للحقائق ، لتؤدي الى التفكير في كل اكتشاف ، واظهار حقيقة جديدة ، حتى يتم بناء صرح الفلسفة الشامخ ، ان ثبت أن لهذا الصرح تماما أو نهاية .

ويبدأ اكتشاف الحقائق حسب رأي ديكارت بالشك في جميع الاشياء والموضوعات ، أي باخلاء الذهن من جميع الاحكام السابقة في تلك الاشياء والموضوعات ، وعدم الارتباط بحكم ما أيا كان . ويكون طريق الشك هذا كفيلا وحده لايجاد حقيقة أولى لا تحتمل شكا أو انكارا ، وتمتاز علاوة على ذلك بصفة الخصب المعنوي ، فهي حقيقة أولى تجر وراءها حقائق أخرى في نظام بديع .

ويقضي نظام الاكتشاف الذي قال به واتبعه ديكارت بأن يتم التقدم الفلسفي لا بالانتقال الجدلي من هذه الحقيقة الأولى الى حقائق أخرى أغنى منها وأكثر تعقيدا ، انما بالتفكير في تلك الحقيقة حتى يؤدي التفكير الى حقيقة تالية ومكملة لها وتكتمل الأولى بها .

فازاء الحقيقة الأولى التي تم اكتشافها وعبر عنها بالقضية « أفكر اذن أنا موجود » يقوم في عقل الفيلسوف سؤالان لا بد من الاجابة عنهما ، لو أراد التقدم الى معارف جديدة • السؤال الاول : كيف يعينني التأمل على الخروج من النفس الى العالم والكون والوجود ؟ ويطلق اسم «الكوجيتو» اصطلاحا على الدليل الحدسي الذي أورده ديكارت لاثبات وجود النفس ، وهو محاولة لاثبات وجود « الذات » في أي فعل من أفعال الفكر ، حتى في الشك ، « أنا أفكر ، اذن فأنا موجود (١) » فكوني أشك يفيد أني أفكر ، وكوني أفكر يفيد ثبوت انيتي • وهذه الحقيقة ندركها بلمحة واحدة من لمحات الفكر : فهي حدس وليست قياسا ولا استدلالا • وقد نحتاج ، للتعبير عن هذا الحدس ، الى كلمات كثيرة متعاقبة ، ولكنه على كل حال حدس أول واحد : فانني في شكي هذا مدرك وجودي ، ووجودي متضمن في فكري ، وفكري حاضر بنفسه حضورا مباشرا ، ولو فرضنا أن شيطانا خبيثا يضلني في كل شيء فهو لا يستطيع أن يمنعني من التوقف عن

---

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة الباب الاول مادة ٧ •

التصديق ، ولا أن يمنعني من اليقين بأن ذاتي موجودة حين أفكر (١) ٠

ولكن ماذا في « الكوجيتو » يضمن لي أنني أقول الحق ؟ لا شيء البتة ٠٠٠ الا أنني أرى في وضوح قوي أنه لكي أفكر يجب أن أكون موجودا ٠ فأنا اذن أستطيع أن اتخذ لنفسي قاعدة عامة ، وهي أن الأشياء التي ندركها ادراكا واضحا ومتميزا كلها حقيقة ٠ قال ديكارت : ولما انتبهت الى أن هذه الحقيقة : أنا أفكر فأنا موجود ، هي من الرسوخ بحيث لا يستطيع الارتيابيون أن يزعزعوها مهما يكن في فروضهم من شطط ، حكمت بأنني أستطيع مطمئنا أن أتخذها أصلا للفلسفة التي كنت أطلبها (٢) ٠

ويرى ديكارت أننا لا نستطيع أن نفترض أننا غير موجودين حين نشك في جميع الاشياء ٠ كون « الكوجيتو » في الترتيب المنطقي هو الكشف الاول من كشوف الفلسفة الكبرى ، وبه نلمس الحقيقة الواقعة حيث ننتقل من المنطق ، وهو علم صور

---

(١) ديكارت : المقال في المنهج : القسم الرابع ص ٥١ ٠

(٢) المصدر نفسه ص ٥١ ٠

الفكر ، الى الميتافيزيقيا ، وهي علم الوجـود ، ولدينا في « الكوجيتو » معرفة مباشرة حدسيـة لوجودنا ، معرفة لطبيعة بسيطة • وهي انيتنـا وذاتنا المفكرة •

والوجود الذي ندركه ، حين ندرك وجودنا ، ليس هو وجود جسمي ، بل هو وجود فكري ، فأنا أعلم نفسي الآن موجودا مفكرا ، ولا أعلم بعد اذ كنت شيئا آخر غير هذا الموجود المفكر • فأنا مفكر ، بمعنى أني موجود يتعقل ويشك ، ويثبت ،وينفي ، ويريد ، ولا يريد ، ويتخيل ، ويحس أيضا • فكل هذه الواقعة الاصيلة البديهية التي لا ترد ولا تدفع والتي تبقى بعيدة عن الشك مهما بلغ ، والتـي سيقام عليها بناء الفلسفة المستقبلة • « أنا أفكر واذن فأنا موجود » أنا « شيء مفكر » ، وأنا كذلك بالطبيعة وبالماهية ، وأنا لا أستطيع أن أكف عن التفكير دون أن أكف عن الوجود ، والواقع أنني أفكر دائما ، أفكر وأنا طفل صغير ، وأفكر أثناء النوم ، وفي حال الغيبوبة عن الوعي والشعور ، وكل ما في الامر أنني أفكر اذ ذاك فكرا مبهمـا غامضا مؤلفا من أحاسيس صماء لا وعي فيها ولا وجدان •

ويتميز الفكر عن البدن ، وعن الاجسام ، بل ان وجود الفكر أشد وثوقا وثبوتا من وجود الجسم : فاني أعرف الفكر بالفكر نفسه ، أما الاجسام فليس بمقدورنا ادراكها الا في الفكر وبالفكر • فمعرفتي بالنفس معرفة مباشرة يقينية ، وليس يعرف الجسم الا بالظن وبالتخمين (١) •

وعندما أدرك نفسي كمفكر بالفعل ، أدرك حقا وجودي ، بل أدرك زيادة عنه ، أدرك انيتي كلها في طبيعتها وماهيتها ، والواقع أنه لا يخص انيتي الا ما هو موجود بمقتضى فعل « الكوجيتو » ، وبهذا المعنى كنت أيضا موجودا يشك ويحس ويتخيل ويريد • لكنني كنت كذلك لأن الشك والاحساس والتخيل والارادة ليست الا « بالكوجيتو » ولأنها أولا في الحقيقة فكري أنا • واذن فالفكر يعبر عن طبيعتي كلها : هو ماهيتها وصفتها الذاتية ، وكل ما يلائم الفكر يلائمني ، وكل ما ينافيه ينافيني • وان فلست امتدادا ولا شيئا مما ينطوي في فكرته على الامتداد ، لأن الفكر عند تحليله لا يشتمل على شيء من الامتداد ، كما أن الامتداد لا ينطوي

---

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة : الباب الاول مادة ٨ •

واول ما استخلصه ديكارت من مبدأ «الكوجيتو» هو الفصل الحاسم بين طبيعتي النفس والبـدن ، واثبات استقلال نفوسنا عن أبداننا : فان ديكارت بعد أن تم له اليقين بانه موجود ، تاكد أنه يستطيع أن يتصور أنه لا جسم له على الاطلاق ، وأنه ليس في مكان ولا في عالم • ولكنه ليس بمستطيع من أجل هذا أن يتصور نفسه غير موجود ، واذن فالانية أو الذات المفكرة موجودة ، حتى لو فرضنـا أن البدن غير موجود •

ويرى ديكارت في « المقال » : ان كوني أروي الفكر شاكا في حقيقةالاشياء الاخرىيقتضي اقتضاء جليا يقينيا أنني موجود ، في حين أنني لو وقفت عن التفكير ــ وكان سائر ما كنت تصورته حقا ــ لما ساغ لي أن أعتقد أنني موجود • فعرفت من ذلك أنني جوهر كل ماهيته أن يفكر ، وأنه ليس في حاجة ــ لكي يكون موجودا ــ الى أي مكان ، ولا يعتمل على شيء مادي ، بمعنى أن النفس التي تقوم انيتي متميزة عن البدن تميزا ، بل هي أيسر منه معرفة ، وأنه لو لم يكن الجسم موجودا على

الاطلاق لكانت النفس موجودة بتمامها (١) ٠

والنفس بمفهوم ديكارت جوهر مفكر لا تحوي الا وعيا وتفكيرا ٠ واذا لاحظنا أفعال تفكيرنا ، باعتبار أن كل فكرة ليست الا تفكيرا يقصد موضوعا معينا بالذات ٠ واذا دققنا في أفكارنا فلربما نهتدي الى واحدة منها ، تخرج بنا التأمل فيها من النفس الى الوجود الخارجي ٠ ومن المؤكد أن يؤدي النظر في أفكار النفس الى تقسيم تلك الافكار الى أنواع ثلاثة : أفكار خارجية أو عارضة صادرة عن الحواس وتدل على موضوعات خارجية تشبهها مثل أفكار اللون والصوت والطعم ، ومركباتها من أفكار الاجسام والاحداث ٠ ثم أفكار مصطنعة يفعلها الخيال على أساس تلك الافكار الخارجية السابقة بتركيب فريد يجمع بعضها الى البعض الآخر ، أو أجزاء بعضها الى أجزاء البعض الآخر ٠ ثم أفكار فطرية نتعرف عليها بمجرد النظر في طبيعتها : مثل أفكارنا عن الشيء والوجود والنفس والحقيقة والامتداد ، وعن الله أخيرا ٠ وتلك الافكار ثابتة في النفس ، لا شك في وجودها ، مهما كان من وجود

(١) ديكارت : المقال في المنهج : القسم الرابع ص ٣٢ ـ ٣٣ ٠

موضوعات خارجية تقابلها أو عدم وجود مثل تلك الموضوعات • اذ يبدو أن النفس لا تحتاج الى الحس والخيال للتفكير في ذاتها ، وفي أنها موجودة ، وفي عيوبها ونقصها ، وفي امكان وجود كائن لا عيب فيه ولا نقص ، وفي الامتداد الذي يدرسه علم الهندسة (١)

لنعتبر تلك الافكار المختلفة ، لعلنا نهتدي الى نوع منها ، يخرج بنا الى العالم والكون والوجود ولنبدأ بالأفكار الأولى التي يستدل بها مباشرة على وجود موضوعات خارجية مشابهة لها : في هذه الافكار ادعاء واضح الى وجود خارجي ان ثبت ثبت معه يقيننا ، وربما تأدينا بفضله الى أساس اليقين والوجود •

ولكن البحث عن الافكار الأولى لا يؤدي الى نتيجة ما ، بعدما أوردنا من عوامل الشك في الحواس ، وفي الموضوعات الخارجية المحسوسة بوجه عام • وبين أن دلالة الافكار على وجود موضوعات خارجية تشبهها ، دلالة واهية مثل

(١) ديكارت : التأمل الثالث : ١٧٨ ـ ١٧٩ •

معرفتنا الحسية كلها • فالى أي أساس تستند تلك الدلالة ؟ الى شعورنا الباطن بقيام تلك الافكار فينا دون ارادتنا ودعون دعوتنا لها ؟ أم الى شعورنا بقوتها وحيوتها ؟ غير أن أحلامنا تصحب (١) كثيرا بهذا الشعور ، دون أن ندعي عند تيقظنا منها الى وجود الاحداث التي مثلتها الاحلام لنا • أتستند دلالة الافكار الى ميلنا الطبيعي ، واندفاعنا الى تأكيد موضوعات تلك الافكار ، والى ارتباط ذلك الميل الطبيعي بحياتنا العملية ؟ ولكن كم من مرة قادنا الميل ، وقادتنا الرغبة الى البحث عن أشياء مضرة بنا ، والى اقتنائها وحيازتها ، وكم من مرة قادنا ذلك الميل الى أعمال شريرة ضارة بأنفسنا ان صح أن لهذا العالم وجودا ؟ واضح ان هذه الطبيعة العمياء التي تفرض علينا ميولها ، تخالف بالمرة نور العقل الطبيعي الذي يهدينا الى الحق والخير وحدهما •

ولا بد لنا من استبعاد تلك الافكار الخارجية العارضة ، أو لننفض الطرف عن ادعائها الى وجود موضوعات خارجية تشبهها • فتلك الافكار قائمة

---

(١) ديكارت : التأملات : التأمل الثالث ص (١٧٩ ـ ١٨٠) •

في النفس دون شك • وكذلك من الضروري ابعاد الافكار المصطنعة ، اذ مهما كان من قيمتها ، فهي صادرة أصلا عن الافكار الحسية • وعلى ذلك فهي تحمل ضمنا ادعاء الى وجود خارجي لا يمكن تسويفه بأي حال من الاحوال •

وليست الافكار الفطرية في حد ذاتها تحمل الادعاء المذكور كونها لا تفاجيء النفس كما أنها لا تبعث فيها ميلا قويا الى تقرير موضوعات خارجية • ولا بد من التساءل عن السبيل الى الخروج من النفس ؟ وان لم يكن في النفس سوى أفكارها فلا بد من النظر الى هذه مرة أخرى ، والى اعتبارها اعتبارا جديدا ، فعسى أن نعثر على الوجود المطلق خارج النفس • وان لزم مضاعفة الحذر منها لادعائها المذكور ، ولكيفياتها الحسية ، وما تحتمله معرفة تلك الكيفيات من أخطاء وخداع • ان نظرنا الى وجود الافكار في النفس ، تبين أن له معنيين مختلفين كل الاختلاف • فلكل فكرة وجود صوري أو فعلي ، حقيقة صورية أو فعلية ، ولكل فكرة وجود موضوعي أو تمثيلي ، حقيقة موضوعية أو تمثيلية • فالفكرة حاضرة في نفسي بالفعل ، في وقت معين ، بعد أفكار وقبل

أخرى ، ولا اختلاف بين الافكار ذاتها في هذا المعنى . فكلها تحمل صورة أو طبيعة الفكر ، ولكل منها ملابسات زمنية فعلية معينة . أما من ناحية وجودها الموضوعي والتمثيلي ، فالأفكار تختلف وتتفاوت : هذه فكرة تمثل موضوعا معينا وتلك موضوعا آخر وتلك مثلثا أو دائرة أو حصانا أو انسانا أو صفة من صفات الانسان ، أو ملاكا أو الها (١) .

الله عند ديكارت :

من الملاحظ أن ديكارت بعد أن أثبت وجود ذاته وأنه شيء مفكر أو جوهر ، التفت الى البحث عما يعرض له عندما يكون في حالة التأمل من أفكار ، فوجد في نفسه فكرة سيطرت على جميع ما عداها ، وهي فكرة الكامل أو اللامتناهي ، استعان بها على اثبات وجود الله . مقدما بعض الأدلة والبراهين المنطلقة من ذاته ، ومن أفكاره العقلانية ، وهي :

الدليل الأول : يوصلنا البحث في ماهية هذا الوجود الموضوعي للافكار الى دليل أول على وجود

(١) ديكارت : التأملات : التأمل الثالث : ص (١٨٠ ـ ١٨١) .

الله ، ولبيان هذا الدليل ، يجب علينا أن نفـرق الوجود الموضوعي للافكار الذي نتحدث عنه ، عن ادعاء الافكار الحسية العارضة الى وجود موضوعات مشابهة لها • وقد بينا أن لا قيمة لهذا الادعاء • وليس هدفنا أن نستدل بأي فكرة من الافكـار ، حسية كانت أم غير حسية ، على وجود موضوعات الافكار أيا كانت • اننا لا نرمي الى اثبات وجودها الطبيعي • انما ننهد لتفسير الافكار في ذلك الوجود ذاته •

وليس من شك أن هناك اختلافا بين الافكار من ناحية وجودها الموضوعي : ففكرتي عن المثلث هي غير فكرتي عن الدائرة وغير فكرتي عن الانسان ، ومن المؤكد أن هناك تفاوتا بين الافكار في مرتبة ذلك الوجود الموضوعي • ففكرتي عن انسان غير فكرتي عن صفات ذلك الانسان ، عن لونه مثلا ، أو صوته أو ذكائه • انها فكرة عن جوهر ، بينما كانت تلك الافكار عن أعراض ذلك الجوهـر ، وفكرتي عن الله غير فكرتي عن الانسان ، وبالأولى عن جسم من الاجسام • انها فكرة كانت أسمى ، أزلي ، لا متناهي ، ثابت ، لديه المعرفة والقدرة الكاملتان ، خالق جميع الاشياء الخارجة عن ذاته ،

وتملك فكرته وجودا موضوعيا أكثر مما تملك أفكار الجواهر المتناهية (١) ٠

وقد نتساءل كيف يمكن تفسير الافكار في وجودها الموضوعي هذا وما سببها وما علتها ؟ ومن المؤكد أنها لا تحتاج في وجودها الصوري الى علة خارج النفس ذاتها ٠ أما وتلك الافكار مختلفة متفاوتة فيما بينها في وجودها الموضوعي ، لزم البحث عن علة تفسر تمثيلها للموضوعات واختلافها في هذا التمثيل وتفاوتها ٠ ولا يمكن فرض موضوعات خارجية تؤثر في النفس ، وتمد هذه بالأفكار المختلفة ، وربما نتساءل عن سبب الافكار في وجودها الموضوعي هذا وما سر اختلافها وتفاوتها ؟ فالاجابة أنه مهما بحثنا في الظرف الحاضر لما وجدنا لتلك الافكار كلها ـ ما عدا واحدة منها ـ سببا خارج النفس ذاتها ، سواء نظرنا الى ما تتضمنه موضوعات تلك الافكار من نقص أو لما تفترضه من حقيقة أو كمال : فأفكار مثل الحار والبارد والحلو والمر وما اليها لا تحوي الا حقيقة موضوعية ضئيلة وما بها من نقص يمكن

---

(١) ديكارت : التأملات : التأمل الثالث ص ١٨١ ٠

رده الى ما في النفس من نقص وقابلية للاخطاء والخداع (١) : أما ما يحويه بعضها من حقيقة موضوعية فيعود الى ما في النفس من قدرات وكمال• أما الافكار الرياضية فعلاوة على أنها تمثل للنفس في صفاء وتميز يعظمان بقدر ما تتجنب النفس الاتصال بالعالم الخارجي الذي تدعي وجوده ـ علاوة على هذا ـ فليس هناك فيها ما يجبرنا على تعدي قدرة النفس على تمثلها وتكوين بعضها من البعض الآخر • كذلك هو الامر فيما يتعلق بأفكارنا الواضحة المتميزة عن الاجسام : فالأجسام، خارج الكيفيات التي أشرنا اليها كالحار والبارد والحلو والمر ، تحمل خصائص نتمثلها بوضوح وتميز كاملين لا لسبب الا أنها راجعة في نهاية الامر الى الخصائص الرياضية كالمسافة والشكل والعدد • وأفكارنا عن هذه الخصائص لا تتطلب منا الخروج عن النفس وعن قدرتها على التصور والتركيب (٢) • ظلت أفكارنا عن غيرنا من الناس وعن الملائكة وعن الله : ولا تختلف الأولى في موضوعها عما نعرفه في أنفسنا ، أما الثانية فهي

(١) المصدر نفسه ص ١٨٤ •

(٢) ديكارت التأملات : التأمل الثالث ص ١٨٣ ، ١٨٤ •

على الاغلب مزيج من أفكارنا عن النفس وعن الأجسام (١) ، أما فكرة الله فهي ـ في ناحية واحدة منها على الاقل ـ تقتضي سببا خارج النفس وخارج قدرة النفس على التفكير ٠

والبحث في النفس ومحتوياتها يوصلنا الى أن نتأمل في فكرة الله وأن نحاول تفسيرها من جهة حقيقتها الموضوعية ، أي من جهة ذلك الموضوع الذي تمثله دون غيره من الموضوعات ٠ وفكرة الله هي كما لاحظنا فكرة كائن كامل أزلي لا متناه لديه المعرفة والقدرة الكاملتان وهو خالق جميع الاشياء ٠ وتلك الفكرة تنبع من النفس نبوعا طبيعيا : فيكفي لصدورها أن نفكر في أنفسنا وفيما يحمله وجودنا من نقص وفيما يعرض لتفكيرنا من شك وخداع ثم فيما نحن حاصلون عليه من حقيقة وكمال ورغبة في تجنب مواضع النقص والشك والخداع ٠ يكفينا هذا التفكير في أنفسنا لنصل على نحو مباشر الى التفكير في كائن كامل (٢) ٠ ولذلك كانت فكرة هذا الكائن هي الأولى التي

(١) ديكارت التأملات : التأمل الثالث ص ١٨٣ ٠
(٢) المصدر نفسه ص ١٩١ ٠

تمثل للنفس مثولا طبيعيا مع فكرة النفس عن ذاتها ووجودها وانها كانت مرتبطة بهذه الفكرة الأخيرة ارتباطا مباشرا ٠

وقد نتساءل من أين جاءتنا هذه الفكرة ؟ اذ سبق أن أثبتنا أن لا موضوع خارجي يفسرها ٠ ثم لا يمكن أن تكون النفس سببها ٠ فالنفس ناقصة محدودة منتهية ودون الكائن اللامتناهي القادر الذي تتمثله بفكرتها ٠ ولا يمكن للادنى أن يفسر الأسمى ٠

ولا يمكن أن تكون النفس وحدها سبب تفكيرها في الكائن الكامل اللامتناهي ٠ ولا يجوز أن يقال أن في الله كمالات متعددة ربما أكون قد حصلت على أفكارها بواسطة تجربتي الشخصية ، وجمعت هذه الافكار فيما بينها وعملت منها فكرة لكائن كامل ٠ هذا غير جائز لأن فكرتي عن الله تتضمن في ذاتها اتحادا مباشرا فعليا لكافة الكمالات فيما بينها ، وذلك مهما بدا لعقلي من اختلاف بين تلك الكمالات ٠ ولا يمكن أن يقال أني أنا الذي كونت فكرة اللامتناهي بناء على الكمال اللامتناهي القائم في نفسي بالقوة ، بناء على قدرة نفسي على

التقدم تقدما مطردا الى هذا الكمال اللامتناهي الذي أتصوره • لا يمكن هذا لأن اللامتناهي مثل الكمال حاضر في الله بالفعل لأن فكرتي عن كمال الله ولا نهايته هي التي تجعلني أتصور وأفهم حدودي ووجودي ونقصي • ان هذه الفكرة في نفسي لتدل على الله وكأنها علامة الصانع على صنعه •

لتفسير فكرة الكائن الكامل اللامتناهي يجب الخروج من النفس والحكم بأن هذا الكائن ، الكامل اللامتناهي موجود وبأنه علة تلك الفكرة وسببها الوحيد (١) •

الدليل الثاني : أقر ديكارت بما حمله الدليل الأول من صعوبة لا سيما على من لم يتعود المضي طويلا في تجريد أفكاره وتقليبها على مختلف أوجهها ، ورأى أن يؤيد هذا الدليل ويكمله بدليل ثان يبدو أيسر منه وأقرب الى الغرض المطلوب • فبدلا من البحث عن سبب لفكرته عن الكائن الكامل اللامتناهي حاول البحث عن سبب وجوده هو الذي

---

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة الجزء الاول •

يفكر في الكائن الكامل اللامتناهي « أفكر اذن أنا موجود » • أنا كائن مفكر أي يعرف ما في نفسه من كمال ونقص • يعرف أنه يشك ويخطيء كثيرا ويريد أن يتجنب الشك والخطأ معا • ومن المؤكد أنه لا يمكن أن أكون سبب وجودي أنا الذي أفكر في الكائن الكامل ، اذ لو صح ذلك لاستطعت الحصول على تلك الكمالات التي أتصورها في الله والتي أعرف نفسي خالية منها مفتقرة اليها (١) • فوجودي يفترض العدم الذي خرج منه وخروجي من العدم يفترض قدرة مطلقة لا متناهية لا يمكن أن أكون حائزا عليها • ثم اني جوهر مفكر لو كنت منحت نفسي الوجود لما قصرت عن منحها عدة صفات وكمالات ليست هي في نهاية الامر الا أعراضا لذلك الجوهر •

ولما كنت لست سبب وجودي وجب البحث عن هذا السبب ، اذ لا يمكن أن يثبت وجودي ، أو يبقى بدون سبب • اني موجود في الزمن ووجودي الزمني هذا مؤلف من لحظات متتابعة منفصلة الواحدة منها عن الاخرى • فوجودي في اللحظة الحاضرة كان من

---

(١) ديكارت : المقال في المنهج جـ٤ ص ١١٥ • التأمل الثالث ١٧٨ •

الممكن ألا يكون ، وهو لا يستتبع بالضرورة وجودي في لحظة تالية • ولا يمكن أن يكون والدي سبب وجودي • انهما مناسبتان فقط لميلادي ولا يستطيعان المضي به لحظة واحدة وراء ذلك الميلاد • ثم لا جدوى من البحث عن سبب وجودهما والتسلسل في هذا البحث ، بل ينبغي الاكتفاء بالبحث عن سبب وجودي أنا الآن •

أنا موجود الآن • وأعرف أني لست سبب وجودي ولست بالأولى سبب بقائي في الوجود وانتقالي من اللحظة الحاضرة الى لحظة تالية وعلى ذلك فلست سبب انتقالي من اللحظة الماضية الى اللحظة الحاضرة • ولا بد من سبب ، وأن يكون هذا السبب سبب وجوده ذاته وبقائه في الوجود معا ، أي حسب تعبير ديكارت والمدرسين أن يكون سبب ذاته •

هذا هو الكائن الكامل الذي أفكر فيه • فاني أتصوره من الغنى والقدرة بحيث لا يكون مفتقرا في وجوده الى سبب ، ولا عاجزا عن البقاء بذاته في الوجود • فهو اذن قادر على ايجادي وحفظي • هو الخالق الحافظ – ولا فارق بين الاثنين – بما اني

الكائن العاجز ، وبما أن عجزي ايجاد نفسي في اللحظة الحاضرة عجز بالأولى عن الاحتفاظ بها في الوجود ٠

هذه هي الصيغة الثانية للبرهنة على وجود الله ٠ وهي قائمة مثل الأولى على يقيني الاول بوجود نفسي وبما في نفسي من كمال ونقص ، من حقيقة وخطأ ، من وجود وعدم ٠ ويمكن أن يجتمع اذن مع تلك الصيغة الأولى في تعبير واحد مقتضب ٠ يقول ديكارت في بداية « التأمل الرابع » من هذا فقط ، أن (فكرة الله) في نفسي ، ومن كوني موجودا أنا الذي لدي هذه الفكرة أستنتج وجود الله في يقين تام (١) ٠

الدليل الثالث : أما وقد تم اثبات وجود الله أصبح اثبات وجود الاجسام أمرا ممكنا ٠ ولكن ديكارت فضل البقاء مع ما استطاع البقاء في أرض الفكر الثابتة والتأمل فيما يعرفه بوضوح وتميز عن طبيعة تلك الاجسام ، وذلك قبل الخوض في اثبات وجودها (٢) ٠ والمعرفة الواضحة المتميزة

---

(١) ديكارت : التأملات : التأمل الثالث ص ١٩٣ المبادىء الفلسفية ص ٤٠٣ ٠

(٢) ديكارت : التأملات : التأمل الخامس ص ٤٠١ - ٤٠٢ ٠

عن الاجسام هي بدون شك المعرفة الرياضية · ولا شيء أنسب للتأمل وأكثر ثباتا ويقينا بعد النفس والله ، من العلم الرياضي وحقائقه ·

وقد تبين لديكارت أنه يمكن التأدي من هذا التفكير في العلم الرياضي وفي حقائقه الى حقيقة أسمى من العلم الرياضي ذاته الى حقيقة ربما كانت أصل اليقين وأساسه · يستطيع الانسان أن يتقدم في ذلك العلم ما شاء له التقدم ، معتمدا في تقدمه على انتباه متصل للاحكام التي يقوم بها ، وعلى نظام يراعيه بينها أثناء انتقاله وتقدمه ، ومعتمدا بنوع خاص على الافكار الرياضية ذاتها التي تعمل منها الاحكام · فالفكرة الرياضية نظرة النفس الخالصة في طبيعة ثابتة حقيقية كطبيعة المثلث أو الدائرة أو المربع أو ما شابه ذلك · قد لاحظنا أن النفس لا تستطيع ازاء تلك الطبائع الا النظر والبصيرة ثم الاقرار والتسجيل · ففي المثلث مثلا خصائص معينة ان نظر العقل فيها عرف ما بينها من روابط ، واستطاع بفضل ذلك ، الانتقال من هذه الخصائص الى أخرى ومن هذه الى أخرى · كذلك هو الامر فيما يتعلق بالدائرة وبغيرها من الطبائع الرياضية : خصائص مترابطة

فيما بينها ترابطا ضروريا تعمل منه كل طبيعة ولا يستطيع الفكرة ازاء تلك (١) الطبيعة وتلك الضرورة الا أن يقرهما ثم أن يستخدمهما في تقدمه العلمي المتصل ٠

ويرى ديكارت أنه يمكن التفكير في الله وفي موضوع وجوده على نحو مماثل للتفكير الرياضي، الوصول بمقتضى ذلك التفكير الى يقين مماثل لليقين الرياضي ٠ فكما ان فكرة المثلث تقتضي منا أن نقرر أن زواياه مساوية لقائمتين ، كذلك تقتضي فكرة الكائن الكامل أن ننسب اليه الوجود بالضرورة ٠ ففكرة الكائن الكامل هي فكرة كائن لديه جميع الكمالات ٠ ولن يكون هذا الكائن تام الكمال ما لم نقرر الوجود فيه ٠ الكائن الكامل اذن موجود (٢) ٠

هذا الدليل على وجود الله هو المعروف بالدليل الوجودي لأن الفكر ينتقل فيه مباشرة الى وجود الله ٠ وانتقال الفكر هذا الى الوجود هو ما جعل

---

(١) ديكارت : التأملات : التأمل الخامس ص ٢٠٣ ٠

(٢) ديكارت : المقال في المنهج : الجزء ١١٦٤ ، التأمل الخامس (٢٩٣ - ٢٠٤) ٠

الدليل موضع جدال واعتراض أثناء حياة ديكارت وبعد موته • اذ كيف يمكن تبرير الدليل بالاعتماد على مثال العلم الرياضي الذي لا يخرج الفكر فيه لحظة الى الوجود ؟

تقوم المقارنة بين فكرة الكائن الكامل وبين الأفكار الرياضية على أساس أن جميع هذه الافكار بما فيها فكرة الكائن الكامل أفكار لطبائع ثابتة حقيقية • والاعتراضات على الدليل السابق لا بد صادرة عن عدم ادراك للمقارنة المذكورة وعدم فهمهم لنظريته في الافكار والطبائع الثابتة الحقيقية • فالأفكار الرياضية وفكرة الكائن الكامل كلها أفكار لطبائع ثابتة حقيقية أي الطبائع تمتاز كل منها بضرورة داخلية معينة • فكل فكرة رياضية تتمايز عن الأخرى بطبيعتها ، ولكل منها طبيعة وضرورة خاصة بها • كذلك فكرة الكائن الكامل فكرة ثابتة حقيقية ، ولهذه الطبيعة ضرورة معينة خاصة ، تميزها من الطبائع الرياضية • واذا كان من المحقق أن لدينا فكرة عن الكائن الكامل فالسؤال هو بصدد ما يميز تلك الفكرة أو بصدد ما يميز طبيعة وضرورة هذا الكائن الكامل الذي لدينا عنه فكرة ، عن الطبائع الرياضية التي لدينا عن كل

مثلها فكرة واضحة متميزة . فيما تتمايز فكـرة الكائن الكامل عن تلك الافكار ؟ انها تتمايز عنها ، ويصح أن نقول انها تمتاز عليها ، بأنها فكرة لكائن لا تنفصل ماهيته عن وجوده ، فكرة لكائن تقتضي ماهيته وجوده (١) ، بينما لم تقتض ذلك أي فكرة من الافكار الاخرى . فكرة الكائن الكامل فريدة بين الافكار وتتمايز (٢) عنها ، كما تتمايز فكرة المثلث عن فكرة الدائرة وعن فكرة المربع . ولفكرة الكائن الكامل هذه ضرورة تفرض علينا أن نقرر وجود موضوعها ، كما كانت لفكرة المثلث ضرورة تفرض علينا أن نقرر للمثلث زوايا ثلاثا مساوية في مجموعها لقائمتين . وكما أننا اذا فكرنـا في المثلث ، اعترفنا بأن زواياه مساوية لقائمتين ، كذلك كل مرة تأتي لنا فيها التفكير في الكائـن الكامل ، وجب علينا الاعتراف بوجوده ، وان كان الأمر كذلك فهذا التفكير في الكائن الكامل ، صورة طبق الاصل لهذا الكائن ، وأثـر أول في النفس لا يمحى لطبيعته وضرورته ، واذا كان الامر كذلك تبينت لنا وحدة الأدلة على وجود الله وأنهـا في

---

(١) ديكارت : الاجابة عن الاعتراضات الاولى ٢٤٢ .

(٢) ديكارت : التأملات : التأمل الخامس ٢٠٥ .

نهاية الامر صيغة لدليل واحد ·

ديكارت ووجود العالم :

يلاحظ ديكارت بعد أن علم أنه موجود ، وأن الله موجود علما يقينيا أنه هو موجود أيضا · بمعنى أن له نفسا متميزة عن بدنه ، وهي قادرة على أن تبقى بدونه ، كونها خالدة لا تموت · ويذهب الى أنه طالما أن الله موجود ، ولليقين بوجود الله منزلة رفيعة عنده ، أي عند ديكارت فمن دون الله كان يظل سجينا في « الكوجيتو » لا يبرحه ، ومن دونه كان يعرف نفسه ولا يعرف شيئا آخر · ولكن وجود الله ضمان لكل علم ولكل يقين ، وبوجوده يستطيع أن يعبر الهوة التي حفرها الشك بين فكره وبين الاشياء ، ويمكن أن يطمئن الى وجود العالم الخارجي · ذلك أن الميل الطبيعي القوي الذي يشعر به ، والذي يدعوه الى الاعتقاد بوجود ذلك العالم ، هو ميل يستحيل أن يقوده الى ضلال ، ما دام قد استفاده من الله الذي هو الكامل الصادق الذي لا يخدع · ومنذ الساعة التي عرف فيها الله أيقن بوجود الاشياء ، وأصبح الشك أمرا مستحيلا ، وذهب ما بقي لديه من ارتياب ، وحل محله ثقة

بالعقل لا تتزعزع ٠

ويقول ديكارت : أستطيع أن أثق من النتائج التي تقود اليها الاستدلالات العقلية مهما يكن حظها من الطول والتعقيد ، ما دمت أراعي فيها شرطا واحدا : أن يكون لي فكرة واضحة متميزة عن كل حلقة في سلسلة الاستدلال ، قد يحدث أحيانا أن أضل في بحوثي ، ولكني حينئذ أنا المسئول وحدي : لأني حر ، وارادتي لا متناهية ، وقد تتعجل ارادتي في الحكم على الاشياء قبل أن يراها عقلي بوضوح وتميز ٠ والله اذ منحني الحرية والاختيار منحني القدرة على الخطأ والصواب ٠

ووجود الله هو الذي يضمن وجود العالم الخارجي ٠ ولكن العالم الخارجي (١) لا يمكن أن يكون وجوده الحقيقي على نحو ما نعرفه بحواسنا، لأن الاحاسيس انما هي أفكار غامضة مبهمة لا تؤدي الى اليقين الذي نتوخاه ، ولن يكون لنا من الاحاسيس أي يقين عن طبيعة الضوء أو الصوت مثلا ٠ والضمان الالهي يفيد أن ما يصح أن يوجد حقا انما هو ما يكون موضوعا لفكرة واضحة

---

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة : الباب الاول ص ١٢١ ٠

متميزة • فاذا بحثنا وأنعمنا النظر لم نجد في تصورنا للعالم الخارجي الا فكرة واحدة متميزة دائمة باقية مهما تتغير الصفات الحسية : تلك هي فكرة (الامتداد) الذي هو موضوع بحوث المشتغلين بالهندسة ، ونستطيع الآن أن نتخذ مبدأ الافكار الواضحة المتميزة وسيلة نستطيع بها أن نطلق الاحكام على وجود العالم المادي وعلى طبيعته • فاذا لقينا جسما ما فيكفي أن نسائل أنفسنا بصدده : عن أي شيء يكون لدينا فكرة واضحة متميزة حين نفكر في هذا الجسم ؟

لنأخذ مثلا هذه القطعة من شمع العسل ، ولم يمض على استخراجها من الخلية الا زمن قصير : فهي لم تفقد بعد حلاوة العسل الذي كانت تحتويه، ولم يزل بها شيء من رائحة الزهور التي قطفت منها ، لونها وحجمها وشكلها أشياء ظاهرة للعيان ، وهي الآن جامدة باردة تستطيع أن تلمسها واذا نقرت عليها أحدثت صوتا ما • وأخيرا جميع الاشياء التي يمكن بتميز أن تجعلنا نتعرف على الجسم ، نلقاها في الشمعة • ولكن بينا أنا أتكلم ، أضعها قرب النار ، فماذا أشاهد ؟ تذهب بقية طعمها ، وتتلاسى رائحتها ، ويتغير لونها ، ويضيع

شكلها ، ويزيد حجمها ، وتصبح من السوائل ، وتسخن حتى لا نكاد نستطيع لمسها ، ومهما ننقر عليها فلن ينبعث منها صوت • أما تزال الشمعة باقية بعد هذه التغيرات جميعا ؟ يجب أن نقر بأنها باقية ، ولا يستطيع أحد انكار ذلك • فما الذي كنا نعرفه في قطعة الشمع هذه بتميز ووضوح ؟ لا شيء يقينا من كل ما لاحظته فيها عن طريق الحواس ، ما دامت الاشياء التي كانت تقع تحت حواس الذوق ، أو الشم ، أو البصر ، أو اللمس ، أو السمع ، قد تغيرت كلها في حين أن الشمعة (١) نفسها باقية •

ومن هذا المنطلق التحليلي لذلك المثال ، يستنتج ديكارت أن الشمعة ليست تلك الرائحة ، ولا ذلك اللون ، ولا تلك المقاومة ، ولا ذلك الشكل ، وأن الحواس لا تدركها في طبيعتها وكيانها ، وأنني لم أستطيع أن أفهم بالخيال ما هي قطعة الشمع هذه ، وانما ذهني وحده هو القادر على أن يفهمها ، وهو القادر على أن يتعقبها دائما • ومهما تحترق الشمعة ومهما تتلاشى ، فالذهن يلحقها حيث تكون•

(١) ديكارت : التأملات : التأمل الثاني ص ٨١ •

والشمعة موجودة وان غابت عن العيان ، وهي باقية وان تناثرت أجزاؤها وذهبت عناصرها مزقا .

والذي يبقى من الشمعة ، والذي يدركه الذهن فيها بوضوح وتميز ، انما هو امتدادها ، لا ذلك الامتداد الحسي الذي أتمثله بحواسي وبخيالي ، بل هو الامتداد الذهني المجرد من الالوان والاصوات والمماسات . وليس الامتداد هو ماهية الشمعة فحسب ، على نحو ما شاهدنا من التحليل السابق ، بل ليس الجسم وليست المادة شيئا غير هذا الامتداد المجرد الذي يدركه الذهن ، والذي هو أشبه بفضاء صاحب الهندسة . واذن فالامتداد وحده هو « الصفة الأولى » وهو جوهر الجسم المستقل عن جوهر النفس . أما الالوان والاصوات والروائح والطعوم فكلها صفات ثانية ، وليس لها وجود في ذاتها وانما وجودها في أذهاننا .

يتضح من ذلك أننا لا نعرف « العالم الخارجي » معرفة مباشرة بالحواس ، ولا ندركه ادراكا مباشرا كما هو في ذاته ؛ وكل ما نعرفه عنه هو الصور الذهنية والافكار التي في أذهاننا . أما أن هذه الصور والافكار مطابقة لموجودات حقيقية لا وهمية ،

فهذا ما لا نعلمه الا بالواسطة ، أي بفضل الصدق الالهي : لأن من غير الممكن أن تخدعنا الافكار التي أودعها الله فينا مع ميل قوي الى الاعتقاد بأنها صحيحة •

لاحظنا من خلال دراستنا لآراء ديكارت في وجود النفس ككائن في الزمن ووعي مباشر بالوجود الزمني • وهذه هي ظاهرة الوجود الزمني النفساني • وعلى هذه الظاهرة أقام الادلة على وجود الله • وهذا يعني نظرية « الخلق المستمر » وتجسيدها بين فيما يتعلق بوجود النفس • وديكارت اذ عرضها في تلك الصورة في كتاب « التأملات » • فهو قد عرضها قبل ذلك في صورة عامة وبصدد العالم المادي ، وبصدد فلسفة الطبيعة كلها ، وذلك في كتاب « العالم » ثم في « المقال عن المنهج » حيث يقرر أن الله يحفظ العالم في الوجود ، على نفس النحو الذي خلقه عليه ، وأن الفعل الذي يحفظ به العالم ، لا يختلف عن ذلك الذي خلقه به (١) ، وأن تلك القدرة التي خلقته لأول مرة ، لا بد من

---

(١) ديكارت : المؤلفات الكاملة « العالم » المجلد الحادي عشر ص ٣٧ ، المقال عن المنهج ص ١٢٢ •

افتراضها من جديد في كل لحظة من لحظات الوجود (١) ٠

ويجسد ديكارت هذه المفاهيم ، بشأن العالم المادي ، في مجال لا يشير فيه الى أدلة على وجود الله، وكأنه لا يحتاج الى أدلة ، أو كأنه ينتقل مباشرة من صفة الحدوث الزمني في العالم ، الى الاقرار بأن العالم مخلوق وبوجود خالق ، كما ينتقل مباشرة من ظاهرة الوجود الزمني النفساني الى اثبات الله الخالق ٠

ومن الواضح ان لنظرية الخلق هذه نتيجة ميتافيزيقية لاهوتية مباشرة ٠ ان الله اذ يخلق العالم خلقا مستمرا ، واذ يحفظه كما يخلقه ، فهو لم يخلقه اذن شيئا فشيئا ، متنقلا به من أبسط الصور الى أكثرها تعقيدا ، ومعتمدا في ذلك على الزمن والتغير الزمني ٠ بل انه خلقه في الاصل ، على الصورة التي نراها عليه الآن (٢) ٠ وتذكر الكتب السماوية بصدد آدم والجنة التي عاش فيها ،

---

(١) ديكارت : التأملات : التأمل الثالث ص ١٨٩ ، الاجابة على الاعتراضات الخامسة ٢٨٣ ٠

(٢) ديكارت : المقال في المنهج ص ١٢٢ ٠

الى أن الله خلق الانسان ، وكائنات العالم في صورة كاملة تامة ٠

ومن الملاحظ أن هذا المعنى اللاهوتي الميتافيزيقي للخلق يجاوز أفهامنا الانسانية ٠ ولكنه لا بد للفيلسوف من بيان علاقة ما بين حقيقة الخلق ، وطبيعة العلم وتطبيقاته العملية الصناعية ٠ وقد لاحظنا مشروع ديكارت في العلم والعالم المادي أنه لا ينفصل عن الناحية التطبيقية للعلم ، ورأينا أن المنهج في غايته وأهدافه متجه الى تلك الناحية التطبيقية ، وأنه في ضوء تلك الاهداف ، يمهد الطريق للعلوم الرياضية في صيغتها التحليلية ، كما يمهد الطريق للعلوم الطبيعية في صيغتها الميكانيكية الهندسية (١) ٠

ولم يخامر ديكارت الشك لحظة واحدة في امكان هذا المشروع العلمي : لا في المرحلة المنهجية ، وقبل أن يثير مسألة الخلق بصدد حقائق العلم ، ولا في المرحلة العلمية ، التالية لموقفه في خلق الحقائق العلمية ، ولا في المرحلتين الفلسفية والاخلاقية ،

(١) ديكارت : المقال في المنهج ص (٧٥ - ٧٧) ٠

كونه أشار في كتابه « مباديء الفلسفة » الى أن الفروع الرئيسية لشجرة الفلسفة هي الميكانيكا والطب والأخلاق (١) • ويؤدي المشروع الذي وضعه ديكارت حول المنهج والعلم ، الى اعتبار العالم الطبيعي امتدادا هندسيا ترجع الحركات فيه الى تغير أجزاء الامتداد في أوضاعها المتبادلة •

ويعبر ديكارت عن هذا المشروع في كتابه « القواعد » عن نظرية خلق الحقائق ، ثم يتجه الى نظرية « الخلق المستمر » التي يربطها بمظاهر علمية فيزيائية ، يحاول فيها أن يستدل على أوضح المعاني الخاصة بأصول العالم المادي ، وأن يفترض وصفا لهذا العالم ولظواهره ، قائما على تلك الأصول ، ومتناسبا مع تلك النظرية الميتافيزيقية اللاهوتية • ويرى ديكارت أنه من المفروض أنه يتعذر على الانسان رؤية علاقة الفعل الالهي المطلق للخلق بتفاصيل الاحداث الزمنية ، وبما أنه من الضروري أن يقف الانسان على تلك الأوجه التي يستطيع بها السيادة على العالم والسيطرة عليه •

---

(١) ديكارت : المقال في المنهج ص (٧٥ ـ ٧٧) •

ويتصور ديكارت في كتابه « العالم » العالم ونشأته ، فيرى نفسه متفرجا على عالم جديد ، غير عالمنا هذا ، عالم جدير بأن يكون الله خالقه ،ويتفق وحقيقة الخلق المستمر ومعاني النفس الواضحة ، ويتناسب ومطالب العمل والتطبيق والصناعة (١)٠

ويطلع علينا ديكارت بالمعنى الواضح عن أصول العالم المادي ، فيرى أنه ليس سوى معنى الامتداد ، وما يتبع ذلك من تصور هندسي للحركة والتغير العالمي ٠ أما الوصف الذي يتخيله ، فهو الوصف الميكانيكي الهندسي ، لأن المادة التي يعمل العالم منها ، يجب ألا نفرض فيها خصائص نراها ونشاهدها بأعيننا في أجسام دون أخرى ، انما يجب تصورها على نحو يفهمه ويقره العقل الطبيعي النير ، ذلك العقل الذي يهتدي بالمباديء الرياضية٠ فالمادة امتداد هندسي يملأ المكان ويشغله ، بحيث لا يبقى فيه خلاء أو فراغ ، لأنه مما لا يمكن تبريره أن يكون الله خلق أجزاء مادية في مكان ، وترك العدم في مكان آخر ٠ اننا أمام ملأ هندسي

---

(١) ديكارت : العالم المجلد الحادي عشر ٠

مطلق (١) ٠

ويرى ديكارت أنه لا يمكن أن ننسب للامتداد أي صورة من تلك الصور الجوهرية الغامضة التي افترضها المدرسيون ، أو أي مظهر من مظاهر القدرة والفاعلية ٠ باعتبار ان الامتداد جامد كل الجمود ٠ وان صح ذلك ، فهذا يعني ان الحركة لا يخرج معناها عن أجزاء الامتداد وعن تغير أوضاعها فيما بينها ٠ ولذلك كان المبدأ الاول الذي يخضع له العالم في حركته هو مبدأ القصور الذاتي ، أي مبدأ الجمود ٠

وينص هذا المبدأ ، على أن كل جسم يظل على الحال التي هو عليها ، ولا يتركها الا عند احتكاكه بالأجسام الأخرى (٢) ٠ وهذا يعني أن الجسم الساكن يظل ساكنا والجسم المتحرك يبقى متحركا بحركة مستقيمة منتظمة ، ما لم تتغير حاله من السكون الى الحركة باحتكاكه بجسم آخر ٠

ومن هذا المنطلق كان الله السبب الاول الفعال

---

(١) ديكارت : العالم : المجلد الحادي عشر ٠ مبادىء الفلسفة جـ٢ ف ١٢ ٠

(٢) ديكارت : مبادىء الفلسفة جـ٢ فقرة ٣٧ ٠

للحركة والحدوث والتغير في العالم ، فالسبب الظاهر هو الاحتكاك • والاحتكاك سبب غير فمال يتناسب والقدرة الالهية • والاحتكاك ينجم عنه تغير الحركة في العالم الذي يقصد منه التقاء جسم بآخر ، وحدوث التغير عند هذا الالتقاء ، على أن يكون التغير في لحظة الاحتكاك ذاتها ويؤتي الاحتكاك أثره فورا • أي أن فعل الاحتكاك قائم في نفس الفترة ولا يتجاوزها ، ولا يحتمل دواما أو ديمومة، انما يقوم ليتلاشى • وعلى ذلك ، كانت الاحتكاكات التي تؤدي الى التغير العالمي قائمة في فترات ، ان كانت متتالية فهي منفصلة ، فلا بد من قدرة عليا للربط بين تلك الاحتكاكات ، ولجعل التغير متواصلا ، واقامة العالم الحادث المتحرك • والمثال على ذلك حركة الضوء • فالضوء يدرك الناظر اليه فورا ، وينتقل الى العين ، كما تنتقل حركة العصا من أحد طرفيها الى الآخر ، انتقالا فوريا • ويرى ديكارت أن فلسفة الطبيعة كلها تنهار لو صح تأخر فعل الضوء أثناء انتقاله ، وذلك لأن التاخر يقتضي انفصالا في الامتداد أو خلاءا ، أي عدما مطلقا ، وهو ما لا تسمح به القدرة الالهية •وهذه القدرة هي قدرة الخلق المستمر • وان كان الخلق

مما يجاوز عقولنا البشرية ، فهناك مقابل لـه في عالمنا الجامد هذا الـذي ترجـع الحركات فيه الى احتكاك يقوم في لحظة ليتلاشى •

وهذا يعني احتفاظ الحركـة بمقدار ثابت لا يتغير في جميع لحظات العالم ، أو هو مبدأ ثبات مقدار الحركة • ففي جميع لحظات الزمن منـذ اللحظة العالمية الأولى ، كـان مقدار الحركة التي طبعها الله على العالم واحدا بعينه ، وعلى ذلك كانت حال العالم في لحظة معينة ، معادلة لها في أي لحظة أخرى ، وكان كل تغير في تلك اللحظة كما في غيرها يقوم تبعا للاحتكاك ، دون أن يكون هناك تغير ما في مقدار الحركة العالمية ذاتها •

ويشير ديكارت الى قوانين الاحتكاك السبعة (١)، التي تنشأ عنها التغيرات الكبرى في العالم • ثـم يمضي بفضل فكرتي الامتداد والحركة الهندسية ، في استدلال متصل لقوانين العالم وظواهر العامة ، تلك التي يمكن أن تتخذ الصيغة الرياضية اليقينية، الى أن يبلغ المرحلة التي يجب الانتقال فيها مـن

---

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة الجزء الثاني من فقرة ٤٥ ـ ٥٢ •

الاستدلال الى التجربة ، وذلك عندما تؤدي القوانين الطبيعية الى عدة نتائج محتملة كلها ، وتتفق كلها مع التفاصيل الواقعية القائمة بالفعل • في هـذه المرحلة يلتجيء الطبيعي الى التجارب ، ولكنـه في هذه المرحلة يأخذ صفة السيادة ، من حيث أنـه لا يفترض التفسير فحسـب ، بـل يفرضه على الطبيعة فرضا •

ويكون ذلك باعتبار ظواهر الطبيعـة وآثارها ناتجة عن اجتماع أجزاء للامتداد ، لها شكل (١) هندسي معين وحركة معينـة ، على النحو الـذي تجتمع عليه أجزاء آلة صناعية أو أجزاء جسـم مصنوع • ويلاحظ ديكارت أن هذه الموازنة بين ظواهر الطبيعة وآلات الصناع ومصنوعاتهم قـد أفادته أعظم الفائدة في كل تفسير قام به للظواهر الخاصة • وأن لا فارق ، بين تلك الآلات والمصنوعات بوجه عام ، وبين الظواهر الطبيعيـة ، الا في أن أجزاء الآلات التي تؤدي الى النتائج المطلوبـة ، كبيرة بحيث تلتقطهـا أو تدركها أعضـاء الجسـم

---

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة جـ٤ فقرة ٢٠٣ •

الانساني ، بينما كانت أجزاء الظواهر الطبيعية صغيرة جدا تجاوز ادراكنا وحواسنا ·

ويمكن تفسير الظواهر الطبيعيـة بالاستعانـة بأجزاء المادة على نحو يمكن معه استحداث ظواهر مماثلة لتلك التي يريد تفسيرها بالغرض الطبيعي ليس سوى معمل تركيبـي ، والتفسير الطبيعـي تركيب للظواهر من جديد ، أو محاولة من جانب الانسان بوجه عام ، والطبيعي بوجه خاص لصناعة الظواهر أو لصناعة مـا يعادلهـا ، ويماثلهـا أو يشابهها · ولذلك كان الطبيعي عالما ومهندسـا وصانعا في الوقت ذاته ·

ويخلص ديكارت من كل هذه الابحاث الى اعتبار ذاته متفرجا على ذلك العالم الجديد الذي يستطيع الله أن يخلقه ، في أي لحظة ، من الامتداد والحركة الهندسية وحدهما · ثم نلاحظ أن ديكارت يتخيل ذاته صانعا ، يستخدم الامتداد والحركة ، لا لتكميل الصناعة الالهية ، وهي كاملة منذ البدء ، بل لصنع ظواهر تماثل التي توجد في العالم · وبذلك نصبح سادة على الطبيعة ومسخرين لها (١) ·

---

(١) ديكارت : المقال في المنهج : جـ٦ ص ١٣٤ ·

الانسان عند ديكارت :

لما كان الانسان أكثر الموجودات الطبيعية تعقيدا، وأشرفها مرتبة ، باعتباره جزء من العالم ، وجسم من الاجسام الطبيعية · لذلك يرى ديكارت أن دراسته تنطلق من دراسة العالم ، كونه الأنا ، أي النفس ، مبدأ الفلسفة الأولى · والفلسفة شجرة جذورها الميتافيزيقا ، وجذعها الفيزيقا ، وفروعها الرئيسية الميكانيكا والطب والأخلاق (١) · ويؤكد ديكارت أن بناء الفلسفة الضخم الشامخ يقوم بحقائق ثلاثة كبرى ثابتة هي النفس والله والعالم ·

ويلاحظ ديكارت أن هناك علوما تطبيقية ثلاثة هي الميكانيكا والطب والاخلاق ، مرتبطة بعلم الطبيعة الذي يبحث في ماهية موجودات العالم ، وأهم أنواع تلك الموجودات ، في الخصائص الرئيسية لكل منها · يبدأ بدراسة الكواكب والشمس والقمر ، ثم يدرس الضوء ، ثم موجودات العالم وخصائص تلك الموجودات وتركيباتها الحركية

---

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة ص ٤٢٨ ·

وأفعالها وانفعالاتها • وتقوم دراسة الطبيعة في أساسها ومنهجها على اعتبار الموجودات راجعة الى الامتداد والحركة ، ويقودنا هذا الاعتبار الى معرفة تفصيلية منظمة للظواهر الطبيعية ، كما تؤدي تلك المعرفة الى استخدام الظواهر بما فيها الظواهر الانسانية ، وذلك في سبيل السيادة على العالم ، وعلى الانسان في ذات الوقت •

ومن هذا المنطلق يكون الارتباط وثيق بين العلم والسيادة ، بين علم الطبيعة من ناحية ، وبين الميكانيكا والطب والاخلاق من ناحية أخرى • ويمكن دراسة البدن الانساني عن طريق الطب على اعتباره مجموعة مترابطة من تركيبات ميكانيكية ، لا تختلف عن التركيبات الداخلة في الاجسام الجامدة في دقة أجزائها ومهارة تركيبها ; والطب ينهد الى معرفة الجسم الانساني في أجزائه وتركيباته المختلفة ، وعلاقات تلك الاجزاء وتلك التركيبات فيما بينها ، يقوم على علم التشريح ليس الا حسب ما يراه ديكارت •

والتشريح أساس ضيق كل الضيق لعلاج الجسم الانساني ، وقد اتضح ذلك لديكارت في نهاية

تجاربه وأبحاثه ، ويلاحظ في سني حياته الاخيرة أضعف ثقة في الطب منه في السنوات السابقة على « التأملات » و « مباديء الفلسفة » ، بدليل عودته في معالجـة الامراض الى اعتبار الطبيعـة ، والى المقاومة الطبيعية للجسم ، وعدم اكتفائه بوجهـة النظر الميكانيكية للجسم ، وبعلم التشريح •

أما علم الاخلاق ، الذي يلي الطب ، في ترتيب الفنون القائمة على الفيزيقـا ، والـذي يدرس الانسان في اتجاهه نحو السعادة والفضيلة ، فهـو يفترض الماما كاملا بسائر المعارف (١) انه يفترض الميتافيزيقا بما أن الانسان نفس ، وأن جميـع اليقينات متوقفة على النفس ، ثم انه يفتـرض الفيزيقا والفنون الميكانيكيـة والطبية القائمـة عليها ، كون الانسان نفس متحـدة بجسم ، وأن سعادة الانسان تقوم على عدة أشياء في مبدئها صحة الجسم ، وأن ضمان هذه لا يتم الا بفضل معرفة تامة لتركيب الجسم ولاستجاباته المختلفة •

وعلم الاخلاق كما يراه ديكارت يفترض معرفة

---

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة ص ٤٢٨ •

كاملة بسائر المعارف والعلوم ، وقد يبلغ الفيلسوف تمام هذا العلم ، عندما يتقدم في مختلف دراساته وتجاريبه ، ويوطد يقينه الميتافيزيقي توطيدا نهائيا • لذلك كانت محاولات ديكارت في ميدان الاخلاق آخر محاولاته الفلسفية •

ويبدو أن ديكارت قد أوجد بعض القواعد الأخلاقية المؤقتة ، أثناء قيامه بمشروعاته العلمية والفلسفية ، حتى لا يظل مترددا حائرا في أعماله وحياته العملية اليومية ، بينما كان يبحث عن علم كامل رابط لمختلف الحقائق (١) ، ويقين فلسفي مطلق يؤسس هذا العلم ذاته • وعبر عن تلك القواعد المؤقتة تعبيرا جليا ، في كتابه « المقال في المنهج » • ولم يكن هدفه في اتخاذ تلك القواعد ، ايجاد علم أخلاقي أو مذهب أخلاقي ، انما توجيه عمله وحياته أثناء البحث • هدف القواعد الاخلاقية عملي مؤقت ، شخصي فردي ليس الا • ولذلك فهو لم يعمل على اصدارها وصياغتها بعد بحث طويل في الطبيعة الانسانية أو في المجتمع ، انما اتبع في ذلك أقرب المصادر اليه ، عقله السليم ، والثقافة

(١) ديكارت : المقال في المنهج : جـ٢ ص ١١١ •

التي تلقاها عن أساتذته اليسوعيين ، فحملت تلك القواعد مع صفة الرزانة التي عرف بها عقل ديكارت ، شيئا من روح التعاليم التي تلقاها ، وشيئا من الكتب الاخلاقية التي كانت شائعة في وقته ، والتي قد طالع بعضها مع أساتذته أنفسهم ، نقصد كتب الرواقيين في الاخلاق وخاصة مؤلفات ابيكتاتوس وسنيكا ٠

وكما أعاد ديكارت المنهج العلمي في « المقال في المنهج » الى عدة قواعد مقتضبة كذلك أعاد الاخلاق في نفس الكتاب الى قواعد لا تتجاوز الثلاث أو الاربع ٠ وتقضي القاعدة الأولى بأن ينصاع الفيلسوف لقوانين وتقاليد بلاده ، والمحافظة على الدين الذي أنعم الله عليه به منذ ميلاده ، وبأن يتبع في العمل أغلب الآراء شيوعا وأظهرها اعتدالا وأبعدها عن التطرف ٠ وتقضي عليه القاعدة الثانية بعدم اشتراط يقين كامل في الآراء التي يتخذها في الميدان العلمي على أن يلتزم ، ساعة التنفيذ ، السير حسب الرأي الذي اختاره ، دون تردد ٠

أما القاعدة الثالثة فهي تنطلق من اتباع

الفيلسوف حكمة من أعظم حكم الرواقيين ، وهي تلك التي تقضي بأن يعنى الانسان ، بما كان صادرا عن نفسه فحسب ، أي بأخطار النفس وأحكامها ، وبعدم الاهتمام بما يأتيه به الاحداث الخارجية من طوارىء قد تكون حسنة أو سيئة في عواقبها المباشرة • • وفي حالة اتباعنا لهذه الحكمة نتوصل للسيادة والسيطرة التامة على رغباتنا فنوفق بين الارادة والعناية الربانية •

وعلى الفيلسوف أن يستمر في اتباع برنامج الحياة الذي اختاره لنفسه ، عن طريق البحث في مختلف الميادين دون التقيد فيه الا بأحكام العقل • ومن هذه القواعد الاخيرة أوجد ديكارت فلسفة أخلاقية كاملة بالمعنى الصحيح •

ويرى ديكارت أنه لا بد من التوصل الى السيادة على الاجسام وعلى البدن ، سيادة يسمح بها المنهج، ويسمح بها العلم الطبيعي ، تستطيع النفس أن تسيطر على الانفعال ، وعلى ميدان اتحاد النفس بالبدن أي على الميدان الانساني بتمامه ، وبذلك يمكن الاتجاه نحو السعادة • وبمقدورنا فهم الانفعال عندما نعلم أن أحوال النفس اما ايجابية

أو سلبية ، اما ارادة أو ادراك • والنفس فعالة في الارادة ، سواء كان فعل هذه قبولا أو رفضا ، والنفس سلبية في الادراك ازاء ما تدركه من الاجسام الخارجية ، أو من الجسم المتحد بها • وتمتاز الانفعالات من بين الادراكات بأنها مع صدورها في النفس عن الموضوعات الخارجية وعن البدن ، مرتبطة بحياة النفس ارتباطا شديدا • ويتم اتصال النفس بالبدن عن طريق الدوران الدموي •

والانفعال حسب رأي ديكارت علامة من أهم العلامات التي تؤكد اتحاد النفس بالجسم ، ومظهر من أهم المظاهر على اهتمامنا بالموضوعات الخارجية في علاقتها بالنفس • لذلك كانت وظيفة الانفعال مماثلة لوظيفة اللذة والألم • ويعالج الانفعال على أساس الانفعال ذاته ، وعلى معرفة كيفية نشأته في حياتنا • فهو يقوم من ناحية على معرفة القوانين التي يخضع لها جسمنا كجسم من أجسام العالم ، ويقوم من ناحية أخرى على معرفة العلاقات المستمرة في الواقع والتجربة بين أحوال النفس وأحوال البدن •

آراء ديكارت الاجتماعية :

من المؤكد أن الانسان كائن اجتماعي ، تأبى طبيعته البشرية حياة العزلة والانزواء ، باعتباره جزء من الكل ، ولا بد له من أن يعيش مع جماعة من الجماعات • ويقول ديكارت : ينبغي أن يعلم كل واحد منا وان كان شخصا منفصلا عن الآخرين • لا يستطيع أن يعيش وحده ، وأنه في الواقع جزء من أجزاء الكون ، وهو على الخصوص جزء من أجزاء أرض بعينها ، وجزء من أجزاء دولة بعينها، وجزء من أجزاء جماعة بعينها ، وجزء من أجزاء أسرة بعينها ، قد اتصل بها بمسكنه وبعهده وبمولده (١) •

ويرى ديكارت أن حياة الناس في المجتمع ليست أمرا طبيعيا فحسب ، بل هي قائمة على أفعال متبادلة وعلاقات اجتماعية خاصة بالانسان من حيث هو انسان • ذلك أن الناس مرتبطون بعضهم ببعض ، لا باليمين والقسم فحسب ، بل بالصداقة والأخوة أيضا • وتقوم الجماعة بمفهوم ديكارت

---

(١) ديكارت : رسالة الى الاميرة اليصابات في ١٥ سبتمبر ١٦٤٥ •

على صداقة شعورية أكمل وأكثر تحققا مما نجد في أخلاقيات أرسطو • ويقول ديكارت في رسالته الى « فوثيوس » : ليس في الحياة الاجتماعية خيرا أعظم من الصداقة • غير أن الصداقة باعتبارها شعورا اجتماعيا عميقا ورابطة انسانية مقدسة ، ليست مع ذلك هي المظهر الوحيد الذي يميــز الحيــاة الاجتماعية ويطبعها بالطابع الانساني • فهنــاك أيضا كرم النفس الذي يقول عنه ديكارت : ان كرام النفوس قوم أحرار فضلاء متآخون يقدرون أنفسهم الى أعلى درجة يسوغ لهم أن يبلغوهــا في تقدير النفس • وكما أنهم يعرفون قدر أنفسهم كذلك يعرفون أقدار غيرهم • فلا يضعون أنفسهم دون من يفوقونهم مقاما ومجــدا ومعرفــة ، ولا يتعالون على من هم دونهم ، لأنهم يرون أن جميع هذه الأمور ضئيلة القيمــة بالقيــاس الى الارادة الطيبة التي هي وحدها ميزان تقديرهم لأنفسهم ، والتي يفترضون أيضا وجودها أو امكان وجودها عند غيرهم من الناس ، ولذلك تجدهم لا يحتقرون أحدا ، ويميلون الى العفو عند الاساءات والتغاضي عن الهفوات (١) • وكرام النفوس مطبوعون على

---

(١) ديكارت : رسالة الانفعالات : المواد ١٥٢ ــ ١٥٦ •

القيام بجلائل الاعمال وان كانوا لا يقدمون على شيء ما لم يشعروا بأنهم أكفاء له • وهم على قلة مبالاتهم بمصالحهم الشخصية لا يرون أعظم من أن يعملوا خيرا ، وأن يسدوا الى الناس احسانا • لهذا تراهم دائما كاملي الأدب والبشاشة والدماثة ، وعلى أتم استعداد لخدمة كل واحد من الناس • ومع هذا تجدهم سادة لعواطفهم ، مسيطرين على رغباتهم ، منزهين عن نوازع الجسد والحقد والخوف والغضب في معاملاتهم مع الناس •

والحياة الاجتماعية بحسب رأي ديكارت تعرف أيضا ما يخالف الصداقة والمحبة من تضارب الرغبات وتنازع الأهواء • ولكن هناك مسلكا لتلطيف حدة الخلاف في حياة المجتمعات ، واقامة الاتفاق والوئام بين الناس ، وهو أن نجعل العقل حكما في جميع الخصومات والمنازعات ، وأن نزيد عدد الحقائق العلمية اليقينية ، وأن نعمل على اذاعتها في العالم على أوسع نطاق • فمن المؤكد أن الاحتكام الى العقل يجعل الحياة الاجتماعية أسمى منزلة وأرفع قدرا •

وللعقل عند ديكارت وظيفة أخرى : فهو الذي

يقرر في حال التصادم بين الفرد والجماعة ، أيهما على حق وأيهما ينبغي أن يضحي بنفسه من أجل الأخر ·

والمفكر يستطيع ، لو نظر في نفسه واستعمل عقله ، أن يهتدي الى السبل التي ينبغي أن يسلكها، خيرا مما يجد من ملاحظة أخلاق الناس في المجتمع ، وذهب ديكارت الى أن من الخطأ أن نعرض أنفسنا لشر عظيم ، لا لشيء الا لكي نحصل خيرا قليلا لوالدينا أو لبلدنا · ولو أن شخصا واحدا أربى في قيمته على سائر أهل المدينة لكان من الخطأ أن يورد نفسه موارد الهلاك لانقاذهم (١) ·

وليس على الانسان كما يرى ديكارت الذي يهب نفسه للحقيقة الا أن يزيد قدره على سائر أهل مدينته ، غير ان الأمر على خلاف ذلك اذ كانت الجماعة التي ينتسب الفرد اليها جماعة تتعهد الحكمة وتوليها كبير عناية · ان حضارة الأمة وثقافتها انما تقاس بمقدار شيوع التفلسف (٢) الصحيح فيها ، ولذلك فان أجل نعمة

---

(١) مؤلفات ديكارت : م٤ ص ٢٩٢ ·

(٢) ديكارت : مبادىء الفلسفة المقدمة ص ٨٤ ·

ينعم الله بها على بلد من البلاد هي أن يمنحه فلاسفة حقيقيين ٠

وليس الفرد بحاجة الى شيء آخر غير التأمل لكي يجد في نفسه المقياس الذي يقيس به خدمته للمجتمع ٠ ويقول ديكارت : أعترف أن من العسير أن نقدر ، على وجه الدقة ، الى أي مدى يأمرنا العقل بأن نعني بمصالح الجمهور ٠ لكن ليس هذا من الامور التي يلزم فيها تحري الدقة الشديدة ، بل حسب المرء أن يرضي ضميره ، ويحل له أن يجاري في هذا ميوله (١) ٠

ويلاحظ من خلال آراء ونظريات ديكارت أن المجتمع الفاضل الذي يريده هو مجتمع تشرف عليه أرستقراطية فكرية ، وقد يرأسه حاكم فيلسوف يكون في الوقت نفسه هو المشرع الوحيد الحصيف ٠ ومن الواضح أن ديكارت قال بمشروع واحد مثالي كامل ، وآمن ببعض القوانين الاساسية أكثر مما آمن بالناس وبالتجربة الاجتماعية ٠ ولم يجد للسياسة معنى سوى احترام بعض المبادىء التي

---

(١) ديكارت : رسائل في الاخلاق ص ١٠٧ ٠

يضعها ذلك المشرع الوحيد البصير الذي خول حق التصرف في الشؤون الانسانية ٠

عقم الجدل المدرسي :

يقول ديكارت في القاعدة العاشرة من كتابه في المنهج : أعترف بأني ولدت وفي نفسي نزعة عقلية تجعلني أجد اللذة القصوى في اكتشـاف الحجج بنفسي ، لا في الاصغاء لحجج الصغير ٠ وقد كان هذا دافعي الوحيد لدراسة العلوم منذ حداثة سني ٠ فكنت كلما صادفني كتاب يمني القاريء باكتشافات جديدة ، كنت أحاول النظر فيما اذا كان باستطاعتي الوصول الى نتائج مماثلة بالاعتماد على فطنتـي الطبيعية ، وكنت لا أفوت على نفسي تلك اللذة البريئة ، بالتعجل في قراءة الكتب ٠ وكثيرا مـا وفقت في هذه المحاولة ، حتى أدركت أني توصلت الى الحقيقة ، لا كما هو الامر عند سائـر الناس ، بواسطة بحوث مضطربة لا جدوى منها ، تعتمد على الصدف أكثر من اعتمادها على منهج ، بل بفضل عثوري ، بعد تجربة طويلة ، على قواعد يقينية كانت مفيدة جد الفائدة لدراساتي العلمية ، وهي قواعد استخدمتها بعد ذلك في اكتشاف كثير غيرها ٠

وهكذا ألفيت نفسي أمارس هذا المنهج ممارسة دقيقة مقتنعا بأني قد اتخذت بهذا أنجح الوسائل للدراسة .

ولكن ، بما أن العقول لا تتساوى جميعا في استعدادها لاكتشاف الاشياء من تلقاء ذاتها وبمحض قدراتها ، فالقاعدة الحاضرة تعلمنا أنه لا ينبغي الاقبال على أصعب الاشياء وأشدها مراسا ، بل الاهتمام أولا بالتعمق في أبسط الفنون وأقلها شأنا ، وخاصة تلك التي يسود فيها النظام أكثر من غيرها ، كصناعة السجاجيد أو الفنون الطرزية أو الوشي ، كما أنه ينبغي الاهتمام أيضا بكافة التأليفات العددية ، والعمليات الحسابية ، وما شابه ذلك . ففي جميع هذه الفنون ترويض للعقل عجيب ، بشرط ألا نتعلمها عن الآخرين بل ان نكتشفها بأنفسنا . اذ لما كان لا يوجد شيء خفي فيها ، وكانت بأكملها في متناول العقل الانساني ، فهي تظهرنا على أنواع لا حصر لها من التأليفات المتمايزة فيما بينها تمام التمايز والمتباينة تمام التباين ، وان كانت تنظمها قواعد محدودة يرجع الفضل في مراعاتها الى الفطنة الانسانية .

ولهذا نبهنا الى ضرورة البحث في هذه الاشياء حسب منهج • وليس المنهـج فيهـا سوى مراعاة مستمرة للنظام القائم في الشيء ذاته أو ذلك الذي نبتكره ببراعتنا • فمثلا لو أننا طالعنا صيغة ما مكتوبة في رموز مجهولة لنا ، فلا شك في أننا لن نجد فيها أي نظام ، وبالرغم من ذلك ، علينا أن نتخيل فيها نظاما ، لا للتحقق فقط من كل الفروض التي يمكن أن نضعها بشأن كل رمز فيها أو كلمة أو معنى ، بل أيضا لأجل ترتيب هذه الرموز أو الكلمات أو المعاني ، على نحو يسمح لنا بأن نعرف بواسطة الاستقراء كل ما يلزم عنها • فينبغي ألا نضيع الوقت في تخمين مثل هذه الاشياء بالصدفة وبدون منهج ، اذ بالرغم من أننا قد نعثر عليها بهذه الكيفية ، وبسرعة أكبر مما لو توسلنا اليها بالمنهج ، الا أننا نضعف بذلك من نور العقل ونعوده التوافه الى حد أن يصبح متعلقا بظواهر الاشياء عاجزا عن التوغل في بواطنها • ولكنه علينـا ألا نقع مع ذلك في خطأ هؤلاء الذين لا يشغلون فكرهم الا بالأمور الجدية السامية كل السمو والتـي لا يحصلون فيها بعد مجهود طويل الا على علم مختلط ، رغم رغبتهم الحصول فيها على معرفة عميقة ،

علينا اذن المران على أشياء أبسط ، مثل تلك التي أشرنا اليها ، بشرط أن نراعي فيها المنهج ، وذلك حتى تتعود الوصول الى الحقيقة الباطنة للاشياء ، بطرق بسيطة ، معروفة لدينا ، هي أقرب الى ضروب اللهو منها الى شيء آخر • وسرعان ما نحس عندئذ ، وفي وقت أقصر مما كنا نتوقع ، بقدرتنا على أن نستدل بمبادىء بديهية على عدة قضايا تظهر غاية في الصعوبة والتعقيد •

ولكنه قد يدهش البعض من أننا في بحثنا عن الوسائل الكفيلة لاستنتاج الحقائق بعضها من بعض، قد أهملنا جميع القواعد التي رأى الجدليون أن يحكموا العقل الانساني بمقتضاها ، وذلك عندما يفرضون عليه صورا معينة للتفكير تؤدي الى نتيجة هي من الضرورة بحيث أن العقل يستطيع الوصول اليها بمجرد اعتماده على تلك الصور ، مع أنه يهمل النظر بوضوح وانتباه في الاستدلال ذاته • والذي نشاهده هو أن الحقيقة كثيرا ما تفلت من تلك السلاسل ، بينما يبقى في قيودها هؤلاء الذين استخدموها ، وهو ما لا يحدث لغيرهم • وتدل التجربة على أن أقوى المغالطات لا تخدع أبدا أصحاب العقل السليم ، بل المغالطين أنفسهم •

وهذا هو السبب في أننا لما كنا نخشى بقاء عقلنا خاملا أثناء بحثه عن حقيقة شيء ما ، فاننا نستبعد صور الاستدلال هذه باعتبارها معارضة لهدفنا ، ونبحث عن كل ما يكفل استمرار انتباه فكرنا ٠ ولكي نتبين في وضوح أكبر عقم هذا المنهج في معرفة الحقيقة ، فلنلاحظ أن الجدليين لا يستطيعون تكوين قياس صحيح يؤدي الى نتيجة صادقة ، ما لم يكونوا على علم سابق بمادته ، أي بنفس الحقيقة التي يستدلون عليها في قياسهم ٠ ومن هذا نخلص الى أنهم لا يتعلمون شيئا جديدا من تلك الصورة وحدها ، وأن الجدل المعتاد لا فائدة فيه أصلا لمن أراد البحث عن الحقيقة ، وأنه قد يفيد في بعض الاحيان ، وانما لأجل عرض مبسط لحجج كانت معلومة من قبل ٠ وعلى ذلك وجب نقل هذا الجدل من الفلسفة الى البلاغة ٠

ديكارت وأساس الحقائق العلمية :

وفي خطاب أرسله ديكارت الى زميله مرسين في ١٥/٤/١٦٣٠ يتحدث عن أساس الحقائق العلمية فيقول : ٠٠٠ ولن يفوتني أن أذكر في دراساتي الفيزيقية عدة مسائل ميتافيزيقية وخاصة هذه :

ان الحقائق الرياضية ، تلك التي يعتبرونها أبدية، قد أنشأها الله • وهي متوقفة عليه توقفا كليا ، مثلها في ذلك مثل سائر المخلوقات • والقول بعدم افتقار هذه الحقائق اليه ، يجعـل تصورنـا لله كتصور اليونان لجوبيتر ، وساترن ، وفيه اخضاع الله للقضاء والقدر • وأناشدك ألا تتردد في القول في كل مكان أن الله هو الذي أوجد هذه القوانين في الطبيعة ، كما ينشيء ملك القوانين في مملكته •

••• واذا قيل لك أن الله لو كان هو الذي ينشيء تلك الحقائق لكان في استطاعته أن يغيرها كما يغير الملك قوانينه ، وجب الرد بأن هذا يجوز لو كانت ارادة الله متغيرة • أما اذا اعترض بأن الحقائق أبدية وثابتة ، أجيب بأن الله كذلك • واذا اعترض بأنه حر أجيب بأن قدرته بعيدة عن فهمنا • وأنه من الجائز لنا بوجه عام أن نؤكـد قدرته على صنع كل ما لا نستطيع منهجه ، لا عجزه عن كل ما نعجز عن فهمه • ومن الاجتراء الادعاء لمخيلتنا مثل ما لقدرته من مدى •••

وفي رسالةأخرىأرسلها الىمرسين في٦/٥/١٦٣٠ يقول ديكارت : أما بصدد الحقائق الابدية ، فانني

أكرر قولي عنها : أنا صادقة أو ممكنة لا لسبب الا أنها في علم الله صادقة أو ممكنة ، ولا ينبغي أن نقول العكس أي أنها معلومة له في صدقها ، وكان صدقها مستقل عنه ٠

ولو أدرك الناس ما يقولون ، لما قالوا أبدا ، دون تجديف ، أن حقيقة الشيء سابقة على علم الله به ٠ اذ أن ارادة الله وعلمه أمر واحد بعينه ، بحيث أنه اذا أراد شيئا علمه ، وكان الشيء حقيقيا لهذا وحده ٠ ولذلك لا ينبغي القول أن الحقائق تبقى صادقة حتى ان لم يكن الله موجودا ٠ هذا لأن وجود الله أسبق الحقائق وأقدمها ، وهو الحقيقة التي تصدر عنها وحدها سائر الحقائق ٠ وانما أخطأ الناس في هذا لأنهم لم يعتبروا الله كائنا لا متناهيا يفوق كل منهم ، وأنه الخالق الذي تعتمد عليه وحده جميع الاشياء ٠ وهم يقفون عند حروف اسمه ، فيظنون أنه يكفيهم أن يعرفوا أن لفظ الله يدل على نفس ما يدل عليه لفظ
باللاتينية ، وهو الذي يعبده الناس ٠ ومن اليسير على هؤلاء الذين لم يرتفعوا بافكارهم فوق هذا أن يصبحوا ملحدين ٠ ولكونهم يدركون الحقائق الرياضية تمام الادراك دون حقيقة وجود الله ،

فلا عجب ان أنكروا اعتماد تلك الحقائق على حقيقة وجوده • ولكن بما أن الله علة تفوق في قدرتها حدود الادراك الانساني ، وبما أن ضرورة الحقائق الرياضية لا تفوق ذلك الادراك ، كان ينبغي للناس أن يحكموا بقلة شأن هذه الحقائق ، وبخضوعها للقدرة الالهية البعيدة عن متناول أفهامهم •

ديكارت وتمييز النفس عن الجسم :

يتحدث ديكارت في كتابة «مبادىء الفلسفة (١)» عن وجود النفس وضرورة تمييزها عن الجسم ، فيقول : ١ ـ للبحث عن الحقيقة ، يلزمنا ولو مرة واحدة في حياتنا ، أن نشك في جميع الاشياء ، ما أمكننا الشك •

بما أننا كنا أطفالا قبل أن نكون رجالا ، وكنا ، قبل حصولنا على قدرة الوعي الكاملة ، نصيب تارة في أحكامنا على الاشياء ونخطىء تارة أخرى ، لأجل ذلك ، كانت الاحكام ، التي كوناها على هذا النحو من التسرع ، تعوقنا عن ادراك الحقيقة ،

---

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة جـ١ ف (١ ـ ٨) •

وتؤثر فينا بحيث لا يحتمل أن نتخلص منها ، ما لم نعزم ، ولو مرة واحدة في حياتنا ، على الشك في جميع الاشياء التي نجد فيها أقل موضع للشك ٠

٢ ــ في أنه من المفيد أيضا أن ننعت بالكذب كل ما كان يحتمل الشك ٠ بل من المفيد جدا أن ننعت بالكذب كل ما تصورنا فيه أقل داع للشك ، وذلك حتى يمكننا ، لو تأتي لنا اكتشاف بعض أشيـاء تظهر لنا بينة الصدق بالرغم من احتياطنا هذا ، اعتبارها أكثر الاشياء يقينا وأيسرها معرفة ٠

٣ ــ في أنه لا يجب الرجوع الى هذا الشك في توجيه أعمالنا ٠

ولكن يجب أن يلاحظ أني لا أقصد أن تستخدم هذه الطريقة الشاملة في الشك ، الا عند شروعنا في النظر في الحقيقة ٠ اذ من المؤكد أنه فيما يتعلق بتوجيه حياتنا ، كثيرا ما يلزمنا اتباع آراء هي راجحة فقط ، وذلك لأننا لو حاولنا التغلب على جميع شكوكنا ، لكان في ذلك ما يكاد يفوت علينا دائما فرص العمل ٠ وكذلك عندما تتعدد الآراء الراجحة في موضوع واحد ، ولا نستطيع ترجيح

الواحد منها على الاخرى ، يقضي العقل باختيار رأي واحد وأتباعه بعد ذلك على أنه يقيني جد اليقين .

٤ ـ لماذا يمكن الشك في حقيقة الاشياء المحسوسة ؟

ولكن بما أننا نقصد في الوقت الحاضر التفرغ للبحث عن الحقيقة فحسب ، فاننا سنشك أولا فيما اذا كان من الاشياء المحسوسة أو المتخيلة ، ما هو موجود حقيقة في العالم ، اذ نعلم بالتجربة أن حواسنا خدعتنا في ملابسات عديدة ، وأنه من عدم الحكمة أن نثق فيمن خدعنا مرة ، وكذلك لأننا نكاد نحلم دائما أثناء النوم ونتخيل في وضوح عددا لا يحصى من الاشياء التي لا توجد خارج أحلامنا ، ولأننا أخيرا لما كنا قد عزمنا على الشك في كل شيء ، لم تبق لدينا علامة ما تدلنا على أن أفكار الحلم أكثر كذبا من غيرها .

٥ ـ لماذا يمكن الشك أيضا في براهين الرياضيات؟

ويلزمنا أن نشك أيضا في سائر الاشياء التي كانت تبدو لنا فيما مضى يقينية جد اليقين ، حتى

في براهين الرياضيات ومبادئها ، بالرغم من أنها بينة بيانا كافيا ، وذلك لأن هناك من الناس من أخطأ فيها ، وبنوع خاص ، لأننا قد سمعنا ان الله الذي خلقنا يستطيع أن يفعل ما يشاء ، ولا نعرف حتى الآن ان لم يكن قد خلقنا بحيث نكون أبدا مخدوعين ، حتى في الاشياء التي نعتقد معرفتها على أفضل نحو ، اذ بما أنه قد سمح بأن نكون مخدوعين أحيانا كما تبين لنا مما سبق ، فلماذا لا يسمح بأن نكون مخدوعين أبدا ؟ وان توهمنا أن خالق وجودنا ليس الها كامل القدرة ، وأننا موجودون بأنفسنا أو بواسطة شيء آخر ما ، فكلما تصورنا خالقنا أقل قدرة ، كنا على حق في اعتبار أنفسنا من النقص بحيث نكون مخدوعين على الدوام ٠

٦ — في أن حريتنا تسمح لنا بأن نمتنع من تصديق الاشياء المشكوك فيها ، وبأن نتجنب ذلك الخداع ٠

ولكن حتى اذا كان خالقنا كامل القدرة ،وحتى اذا كان يلذ له خداعنا ، فاننا مع ذلك نشعر في أنفسنا بحرية تمكننا من الامتناع — ما شئنا — من

تصديق الاشياء التي لا نعلمها عن يقين ·

٧ ــ في أنه لا يمكننا أن نشك ، الا أن نكون موجودين ، وفي أن هذه أولى المعارف اليقينية التي يمكننا الحصول عليها ·

وعندما نرفض على هذا النحو كل ما يمكن أن يناله أقل شك ، بل نعتبره كاذبا ، فانه من السهل علينا ، أن نفترض أنه ليس هناك اله ولا سماء ولا أرض وأننا بدون جسم ، ولكننا لا نستطيع أن نفترض أننا غير موجودين عندما نشك في صحة هذه الاشياء كلها · اذ من غير المستطاع لنا أن نفترض أن ما يفكر غير موجود بينما هو يفكر ، بحيث أننا مهما نبالغ في افتراضاتنا ، لا نستطيع تجنب الحكم بصدق النتيجة الآتية : أفكر اذن أنا موجود · وبالتالي فهي أولى وأيقن القضايا التي تمثل الانسان يقود فكره بنظام ·

٨ ــ في أننا على ذلك نعرف أيضا التمييز بين النفس والجسم ·

ويبدو لي أن هذه أفضل وسيلة يمكننا اختيارها لمعرفة طبيعة النفس ، ومعرفة بأنها جوهر متمايز

كل التمايز عن الجسم . اذ بالفحص عن ماهيتنا نحن الذين اقتنعنا بأنه ليس هناك خارج فكرنا شيء حقيقي أو موجود ، فاننا نعلم علما بينا أن وجودنا غير مفتقر الى امتداد أو شكل أو ما شابه ذلك مما يمكن نسبته الى الجسم ، وأننا موجودون باعتبار تفكيرنا وحده . وبالتالي أن فكرتنا عن النفس سابقة على فكرتنا عن الجسم وأكثر منها يقينا ، بما أننا ما زلنا نشك في وجود جسم ما في العالم ، في حين أننا على يقين أننا نفكر .

ديكارت ووجود الله :

يرى ديكارت في كتابه « مبادىء الفلسفة (١) » ضرورة البحث في وجود الله وضرورة وجوده فيقول : ١٤ ـ يكفي للبرهنة على وجود الله أن تكون ضرورة وجوده متضمنة في المعنى الذي لدينا عنه .

فعندما نستعرض النفس ما لديها من أفكار أو معان مختلفة ، فتجد بينها فكرة كائن عليم بكل شيء قادر على كل شيء ، وفي غاية الكمال ،يدعونا

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة جـ (١٤ ـ ٢١) .

ذلك الى الحكم بوجود الله ، وهو الكائن الحائز على تمام الكمال ، اذ بالرغم مما لديها من أفكار متمايزة عن عدة أشياء أخرى ، فهي لا تلحظ فيها ما يؤكد وجود موضوعها ، بينما هي ترى في هذه الفكرة ، لا وجودا ممكنا فحسب كما هـو الامر في سائـر الافكار ، بل وجودا ضروريا أبديا مطلقا ، وكما تقتنع اقتناعا كاملا بمساواةزوايا المثلث القائمتين، لكونها ترى تلك المساواة متضمنـة بالضرورة في فكرتها عن المثلث ، كذلك تستنتج وجود الكائـن التام الكمال من مجرد رؤيتها أن الوجود الضروري الابدي متضمن في فكرتها عن هذا الكائن ٠

١٥ ـ في أن المعنى الذي لدينا عن سائر الاشياء لا يتضمن ضرورة الوجود بل امكانه فحسب ٠

ولتستطيع النفس زيادة التأكد من صحة النتيجة السابقة ، لو تنبهت الى خلوها من أي معنى عن كائن آخر غير الله تتصرف فيه الوجود الضروري المطلق ، على النحو السابق - وفي هذا وحده مـا يبين لها أن فكرتها عن الكائن التام الكمال ، ليست من صنعها ، بل أنها أثر تركته في النفس طبيعـة ثابتة حقيقية ، موجودة بالضرورة من حيث أنه

لا يمكن تصور هذه الطبيعة دون اقترانها بالوجود الضروري ٠

١٦ ـ في أن الاحكام السابقة تعوق الكثيرين عن معرفة واضحة بضرورة وجود الله ٠

ولو كانت النفس متحررة من الاحكام السابقة ، لما وجدت صعوبة ما في الاقتناع بهذه الحقيقة ٠ أما وقد تعودنا التمييز بين الماهية والوجود في سائر الاشياء ، وكنا قادرين على اصطناع ما نشاء من أفكار الاشياء ربما لم توجد ولن توجد أبدا ، جاز لنا الشك في أن تكون فكرتنا عن الله احدى تلك الافكار التي نصطنعها كما يحلو لنا ، أو تلك التي لا تتضمن الوجود الضروري في طبيعتها ، وذلك عندما لا نسمو بعقلنا الى تأمل هذا الكائن التام الكمال ٠

١٧ ـ في أن علة الشيء ينبغي أن يكون لها من الكمال بقدر ما نعزو للشيء من كمال ٠

وعلاوة على ذلك ، فالتفكير فيما عدا النفس من معان مختلفة يعيننا على ملاحظة عدم وجود فارق كبير بينها من حيث أننا نعتبرها تابعة لنفسنا

وعقلنا ، ووجود فارق كبير من حيث أن الواحدة منها تمثل شيئا والاخرى تمثل آخر ، بل تعيننا أيضا على أن نلاحظ أن علة الافكار لا بد أن تكون أكثر كمالا ، بقدر ما هناك من كمال فيما تمثله من موضوعها . وهذا يشبه بالضبط موقفنا عندما نسمع عن انسان حاصل على فكرة آلة تدل على قدر عظيم من الحذق ، وتكون على حق في التساؤل عن الوسيلة التي حصل بها على تلك الفكرة . سواء كان ذلك لأنه شاهد في مكان ما آلة مثلها صنعها رجل آخر ، أو لأنه كان عالما بالميكانيكا ، أو لأنه كان من توقد الذهن الى حد ابتكارها دون مشاهدة شبه لها في أي مكان آخر ، وذلك لأن كل الحذق الذي تمثله فكرة الآلة ، وكأن الفكرة صورة لها ، فلا بد من أن يكون محققا في علتها الأولى ومبدئها الاول ، لا على سبيل المحاكاة فحسب ، بل بالفعل وعلى نفس النحو ، أو على نحو أسمى مما تمثله الفكرة .

١٨ ـ في امكان البرهنة على وجود الله مرة أخرى بمقتضى ما سبق .

وكذلك فلأننا نجد في أنفسنا فكرة الله ، أو

الكائن التام الكمال ، فباستطاعتنا أن نبحث عن علة وجود تلك الفكرة فينا ، واننا بعد اعتبارنا لما تمثله تلك الفكرة من كمالات عظيمة ، نجد أنفسنا مضطرين للاقرار بأنها غير صادرة فينا الا عن كائن كامل جدا ، أي عن اله ، موجود في الحقيقة ٠

اذ لا يتضح فقط بالنور الطبيعي أن العدم لا يمكن أن يكون علة شيء ما ، وأن الاكمل لا يمكن أن يكون تابعا لما كان أقل كمالا ومتوقفا عليه ، بل أننا نرى أيضا بهذا النور ذاته أنه من المستحيل أن نكون حاصلين على فكرة شيء ما أو صورته ، ما لم يكن هناك في أنفسنا أو خارجها أصل يحوي كل ما تمثله لنا تلك الفكرة من كمالات ٠ وحيث أننا نعلم بأننا عرضة للكثير من النقائص وأننا لا نملك هذه الكمالات الفائقة التي نتصورها ، وجب الاستنتاج أن هذه الكمالات وتنتمي لطبيعة مختلفة عن طبيعتنا وكاملة ، أي الله ، أو على الاقل أن هذه الكمالات كانت فيه فيما مضى ، وأنها لا بد قائمة فيه الآن ، بما أنها لا متناهية ٠

١٩ ــ في أنه ليس في علمنا شيء أوضح من

كمالات الله وان كنا نعجز عن فهم طبيعته بأكملها.

واني لا أجد ذلك الامر عسيرا على أولئك الذين عودوا عقولهم التأمل في طبيعة الله ، وتنبهوا الى كمالاته اللامتناهية • اذ بالرغم من أننا لا نفهم هذه الكمالات بسبب أن اللامتناهي يفوق ادراك العقول المتناهية ، فان تصورنا لتلك الكمالات أكثر وضوحا وتميزا ، وأقل اختلافا من تصورنا للاشياء المادية ، وذلك لتفوقها على هذه الاشياء المادية في البساطة وانتفاء كل الحدود عنها • ولهذا فليس ما يزيد عقلنا كمالا ، مثل هذا التأمل في الله ، ولا ما يفوقه خطرا ، من حيث أن النظر في موضوع لا حد لكماله يملأ النفس رضى وطمأنينة •

٢٠ ـ في أننا لسنا علة أنفسنا ، بل الله علتنا ، ومن ثم فهو موجود •

ولأن جميع الناس لا ينتبهون لما سبق ، ولأننا نعلم كيف حصلنا على فكرة آلة ذات حذق عظيم ، دون أن نتذكر متى حصلنا من الله على فكرتنا عنه بسبب أن هذه الفكرة قائمة فينا على الدوام•

لأجل ذلك ، وجب علينا مرة أخرى أن نبحث من

هو الذي خلق نفسنا أو عقلنا الذي يحوي فكـرة الكمال اللامتناهي التي في الله • وواضح أن من عرف كائنا أكمل من نفسه فهو لم يهب لنفسه اذ لكان قد وهبها كل كمال في علمه • وعلى ذلك فهو لا يبقى في الوجود الا بالكائن الحائز على كل كمال، أي بالله •

٢١ ــ في أن ديمومتنا وحدها تكفي للبرهنة على وجود الله •

ولا أعتقد أنه من الممكن أن يشك المرء في صحة هذا البرهان ، اذ انتبه الى طبيعة زمن حياتنا أو ديمومتنا • فمن شان هذه ألا تتوقف أجزاؤها على بعضها البعض ، ولا توجد معا ، ما لم تكن تلك العلة التي خلقتنا مستمرة في خلقنا ، أي حافظـة لنا • ونحن نعلم أننا لسنا حاصلين على قوة تكفل لنا الاستمرار في الوجود ، أو تحفظنا فيه لحظـة واحدة ، وأن القادر على ابقائنا خارج ذاته وعلى حفظنا ، لهو يحفظ ذاته بالضرورة،أو لهو بالأحرى لا يفتقر لمن يحفظه ، وأنه هو الله •

ديكارت واتحاد النفس بالجسم :

يعالج ديكارت في كتابه « مباديء الفلسفة (١) » قضية وجود الاجسام ، واتحـاد النفس بالجسم فيقول : ١ ـ في الاسباب التي تعلمنا بوجود الاجسام على الوجه اليقيني ٠

بالرغم من اقتناعنا اقتناعـا كافيا بالوجـود الحقيقي للاجسام في العالم ، الا أنه نظرا لأننـا شككنا فيها من قبل ، وأننا وضعنا وجودنا في عداد تلك الاحكام التي كوناها منذ بداية حياتنا ، وجب علينا الآن أن نبحث عن الاسباب التي تعطينا علما يقينيا بهذا الوجود ٠ وان تجربتنا الداخلية تفيدنا بأن كل ما نحس به صادر عن شيء غيرنا ، بما أنه ليس في مقدورنا أن نحصل على هذا الاحساس أو ذاك ، وان هذا الامر يتوقف على الشيء الذي يؤثر في حواسنا ٠ نعم ، قد يمكن التساؤل عما اذا لم يكن الله أو كائن غيره هو هذا الشيء ٠ ولكننـا نحس ، أو تدفعنا حواسنا الى أن ندرك ، بادراك واضح متميز ، مادة ممتدة طولا وعرضا وعمقا ،

---

(١) ديكارت : مباديء الفلسفة جـ٢ (١ ـ ٢) ٠

لها أجزاء مختلفة الشكل ، وعنها تصدر احساساتنا باللون والرائحة والالم وما الى ذلك · ولو كان الله قد أظهر لنا مباشرة فكرة هذه المادة الممتدة ، أو حتى اذا كان قد سمح بصدور هذه الفكرة فينا عن شيء لا امتداد له ولا شكل ولا حركة ، لما كان هناك مانع من الاعتقاد بأنه يلذ له خداعنا · فاننا نتصور هذه المادة شيئا مختلفا عن الله وعن عقلنا، ويبدو لنا أن فكرتنا عنها تنشأ في النفس بمناسبة أجسام خارجية تشابهها كل المشابهة · ولما كان الله لا يخدعنا ، لما في هذا من منافاة لطبيعته ، وجب علينا أن نستنتج وجود جوهر ممتد طولا وعرضا وعمقا ، وقائم الآن في العالم ، وحاصل على كل ما نعرف له من خصائص · وهذا الجوهر ما يصح تسميته بالجسم ، أو جوهر الاشياء المادية ·

٢ ـ ثم في كيفية معرفتنا باتحاد نفسنا بجسم ·

وكذلك يجب علينا أن نستنتج وجود جسم معين متحد بنفسنا اتحادا أوثق من سائر أجسام العالم ، وذلك لأننا ندرك ادراكا واضحا حدوث الألم لنا وغيره من الاحساسات دون تنبؤنا بذلك ، ثم لأننا نحكم بفضل علم قائم في النفس بطبيعتها أن هذه

الاحساسات لا تصدر في النفس باعتبارها شيئا مفكرا فحسب ، بل باعتبارها متحدة بشيء ممتد يتحرك بما له من أعضاء ، وهو الذي يصح تسميته بالجسم الانساني ٠

٣ ـ في أن الحواس لا تعلمنا طبيعة الاشياء ، بل مقدار فائدتها لنا أو ضررها فحسب ٠

ويكفي أن نلاحظ أن كل ما ندركه بالحواس ، مرتبط بالاتحاد الوثيق بين النفس والجسم ، وأننا في العادة نعرف بواسطتها مبلغ فائدة الاجسام الخارجية لنا أو ضررها ، لا طبيعتها ، اللهم الا في النادر وعلى وجه الاتفاق ٠٠

ديكارت والحرية الانسانية :

ينبري ديكارت ليعالج قضية الحرية الانسانية في كتابه « مبادىء الفلسفة (١) » فيقول :

٣٧ ـ في أن الحرية أعظم كمال للانسان وأنها هي التي تجعله خليقا بالمدح أو الذم ٠

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة : ج١ ف ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ٠

بما أن الارادة متسعة المدى بطبيعتها ، فانها لمزية عظمى أن تكون لنا القدرة على العمل بواسطتها ، أي العمل بحرية ، وأن نصبح بذلك سادة أفعالنا ، ومن ثم جديرين بالمدح عندما نحسن قيادتها • فكما أننا لا نمتدح الآلات التي نراها تتحرك على أنحاء كثيرة مختلفة تتفق وما نطلبه منها ، وذلك لأن هذه الآلات لا يصدر عنها الا ما كان ناتجا عن تركيبها الآلي ، وكما أننا نوجه المدح لصانعها الذي كانت له القدرة والارادة على تركيبها بحذق عظيم ، فكذلك لأن لنا القدرة ، على اختيار الصدق حينما نميزه من الكذب ، فلا بد أن يكون لنا من الفضل أكثر مما لو كان اختيارنا هذا أمرا محتوما يضطرنا اليه مبدأ خارج عنا •

٣٨ ـ في أننا نعرف حرية ارادتنا لا بالدليل بل بالتجربة وحدها •

من البين أن لنا ارادة حرة قادرة على القبول أو الرفض كيفما تشاء ، بحيث يمكن اعتبار هذه الحقيقة من أكثر الامور بداهة • وقد قام الدليل الواضح على ذلك فيما سبق ، اذ في الوقت الذي وضعنا فيه كل شيء موضع الشك ، وافترضنا فيه

أن خالقنا يستخدم قدرته على خداعنا من كل وجه، كنا ندرك في أنفسنا من الحرية ما يمكننا من الامتناع عن تصديق كل ما لم نعرفه معرفة تامة ۰ وهـذا الذي أدركناه ادراكا متميزا ، وكنا غير قادرين على الشك فيه أثناء هذا التعليق الشامل لأحكامنا ، فهو لا يقل يقينا عن كل ما سبق لنا العلم به ۰

٤٠ ـ في أننا نعلم أيضا عن يقين أن الله قدر الاشياء قبل وقوعها ۰

۰۰۰ ولكن بما أن ما علمناه عن الله بعد ذلك يؤكد لنا أن قدرته هي من العظمة بحيث نأثم لو فكرنا في أنه كان من الممكن أن نفعل شيئا لم يقدره من قبل ، فمن السهل وقوعنا في مشكلات كبيرة جدا لو حاولنا أن نوفق بين حرية ارادتنا وأوامر الله ، أي أن نفهم أو نستوعب مدى حريتنا ، وتقديـر العناية الازلية ، وكأن نحيطهما بعقلنا ۰

٤١ ـ في كيفية التوفيق بين حريتنـا وسبـق التقدير ۰

ولكنا لن نجد صعوبة ما في التخلص من تلـك المشكلات ، اذا لاحظنا أن فكرنا متناه ، وأن قدرة

الله الكاملة لا متناهية ، تلك القدرة التي عرف بها من الأزل وأراد كل ما كان وما يمكن أن يكون ٠ وعلى ذلك ، كان لنا من العقل ما يكفي لأن نعرف بوضوح وتميز أن تلك القدرة في الله ، لا لأن نفهم مدى تلك القدرة الى الحد الذي نعلم عنده كيف تسمح بأن تكون أفعالنا حرة تمام الحرية غير محتومة على الاطلاق ٠ ونحن من جهة أخرى على يقين من الحرية وعدم التعيين القائمين فينا بحيث لا نعرف شيئا بوضوح أكثر ٠ وعلى ذلك لم تكن قدرة الله الكاملة مانعا من تيقننا هذا ٠ واننا نخطيء ، لو شككنا فيما ندركه في أنفسنا ونعلم وجوده فينا بالتجربة ، وذلك لأننا لا نفهم شيئا آخر نعلم أنه بالطبيعة ممتنع على الفهم ٠

ديكارت والفضيلة :

يحدثنا ديكارت في كتابه «انفعالات النفس (١)» عن الفضيلة فيقول :

١٥٢ ـ لأي سبب يجوز للانسان أن يقدر نفسه ٠

---

(١) ديكارت : انفعالات النفس : ف (١٥٢ ـ ١٥٦) ٠

وحيث أن من أركان الحكمة أن يعرف الانسان كيف ولماذا يجب عليه أن يقدر نفسه أو يحتقرها ، فاني سأحاول أن أبين رأيي في هذا الموضـوع • واني ألاحظ شيئا واحدا يجعلنا جديرين بتقدير أنفسنا ، ألا وهو ممارسة حريتنا ، وسيطرتنا على ارادتنا ، فالأفعال الصادرة عن حريتنا هي وحدها التي نقبل المدح أو الذم بسببها • وهذه الحرية ، اذ تهيء لنا السيطرة على أنفسنا ،تجعلنا شبيهين بالله على نحو ما ، وذلك بشرط ألا نفرط فيما تمنحنا هذه الحرية من حقوق •

١٥٣ ـ فيما يقوم كرم النفس •

ولذلك فاني أعتقد بأن الكرم الحقيقي وهـو الذي يجعل الانسان يقدر نفســه أعظـم تقديـر ممكن ، انما يقوم : من ناحية في العلم بأنه ليس هناك ما يرجع الى الانسان حقا سوى تصرفه الحر في ارادته وبأنه ليس هناك ما يمدح أو يذم لأجله سوى استخدامه الحسن أو السيء لتلك الارادة ، ويقوم من ناحية أخرى في الشعور بعزيمة صادقة في النفس على استخدام الارادة استخداما طيبا ، أي على عدم الامتناع بارادته عن الاضطلاع والقيام

بكل ما يراه أنه خير الامور · وفي هذا تكون الممارسة التامة للفضيلة ·

١٥٤ ــ في أن هذه الفضيلة تمنعنا من احتقار الآخرين ·

هؤلاء الذين لديهم هذا العلم والشعور بأنفسهم، يسهل عليهم الاقتناع بأن كل انسان آخر يستطيع مثلهم الحصول على هذا العلم وذلك الشعور ، اذ لا شيء فيهما يتوقف على غيرهم من الناس · ولذلك فهم لا يحتقرون أبدا انسانا ما ، ومع أنهم كثيرا ما يلاحظون غيرهم من الناس يرتكب من الاخطاء ما يظهر ضعفه ، فانهم أكثر ميلا الى التجاوز عن ذلك منهم الى ذمهم ، وأكثر ميلا الى الاعتقاد بأن تلك الاخطاء راجعة الى نقص في العلم أكثر من رجوعها الى سوء في النية ، وكما أنه لا يمكن أن يكونوا أدنى بكثير من بعض الذين يفوقونهم في المال أو الشرف ، بل في الذكاء ، أو في العلم أو الجمال أو بوجه عام الذين يفوقونهم في سائر الكمالات ، كذلك هم لا يقدرون أنفسهم لتفوقهم على الآخرين في واحد من تلك الاشياء السابقة ، باعتبارها قليلة الشأن لو قورنت بالارادة الطيبة التي يقدرون

أنفسهم لأجلها وحدها ، والتي يفترضون وجودها أو امكان وجودها في كل انسان آخر .

١٥٥ ـ في التواضع الفاضل .

ولذلك كان أكرم الناس أكثرهم تواضعا . فالتواضع الفاضل ليس الا التفكير في ضعف طبيعتنا، وفي أن الاخطاء التي ربما ارتكبناها في الماضي أو التي قد نرتكبها في المستقبل ، لا تقل عن أخطاء غيرنا من الناس ، وهذا يؤدي بنا الى عدم تفضيل أنفسنا عليهم ، والى الاعتقاد بأنهم مثلنا حائزون على الارادة الحرة وقادرون كذلك على ممارستها .

١٥٦ ـ في صفات الكرم ، وفي أنه علاج لكل ما ينجم عن الانفعالات من اضطراب .

والحاصلون على مثل هذا الكرم يميلون بطبعهم الى الاتيان بجليل الاعمال ، دون الاضطلاع مع ذلك الا بما يشعرون أنه في طاقتهم . وبما أنهم لا يؤثرون شيئا على خدمة الغير وعلى اهمال منافعهم الشخصية ، فهم دائما مهذبون ، ودودون ، سباقون الى عمل المعروف .

وهم علاوة على ذلك مسيطرون تمام السيطرة على انفعالاتهم ، وخاصة على رغباتهم ، وعلى الغيرة والحسد ، وذلك لأنه لا يوجد من الاشياء التي يتوقف اقتناؤها على الغير ، شيء واحد يعتقدون أنه جدير بالسعي كثيرا في طلبه ، وكذلك هم لا يسمحون لأنفسهم بكراهة الناس لأنهم يقدرونهم جميعا ، ولا بالخوف لان ايمانهم بفضيلتهم يمنحهم ثقة بأنفسهم ! ولا بالغضب وذلك لأنهم لما كانوا لا يقدرون الا قليلا جميع الاشياء التي تتوقف على الغير ، فهم لا يغلبون أعداءهم عليهم باظهار ما أصابهم من ضرر على أيديهم •

نهاية المطاف :

بعد أن استعرضنا فلسفة ديكارت و بعض أفكاره العقلانية بمقدورنا أن نقول : من الثابت والواضح أن فلسفة ديكارت هي خلاصة الفلسفة والعلم العرفاني الذي يطبق في عصرنا الحاضر باعتبار هذه الفلسفة تجسد المثالية المطلقة ، كون عصرنا عصر آلي ميكانيكي ، وطدت دعائمه الآلية ميول ديكارت الى ارجاع كل ما عدا العقل الى الامتداد •

ومـــن الضرورة أن نقـــول بأن آراء ديكـــارت وانفعالاته العقلانية يحتلان مكان الصدارة في مجال بعض العلوم الحديثة ، كعلم النفس التجريبي ، وعلم الاجتماع الوضعي ، من حيث انهما يلتمسان الظواهر البسيكولوجية أو الاجتماعية في عناصرها ومرادفاتها الخاضعة للمقاييس الرياضية .

وثقة ديكارت بآلة المعرفة اليقينية التي يجسدها العقل ، والحركة الذاهبة من الباطن الى الظاهر ، ومن الفكر الى الوجود ، ومن الذات الى الموضوع ، ومن اثبات الوعي الى اثبات الجوهر .

« تم الكتاب »

الفهـــرس

مقـــدمه	٥
سـيرة ديكارت وحياته	١١
حياته الدراسية الاولى	١٤
ديكارت يتجه كليه الى العلم والتحصيل	٣٤
شخصيـــة ديكـــارت	٤٥
ديكارت ومنهجه العقلاني	٥٦
قواعد منهج ديكارت	٧٢
ديكارت وما وراء العلم	٧٤
ديكارت من الشك الى اليقين	٧٩
النفس عنـــد ديكارت	٨٨
اللـــه عنـــد ديكارت	٩٩
ديكارت ووجـــود العالم	١١٣
الانسان عند ديكارت	١٢٨
آراء ديكارت الاجتماعيه	١٣٥
عقم الجدل المدرسي	١٤٠
ديكارت وأساس الحقائق العلميه	١٤٤
ديكارت وتمييز النفس عن الجسم	١٤٧
ديكارت ووجود الله	١٥٢
ديكارت واتحاد النفس بالجسم	١٥٩
ديكارت والحرية الانسانيه	١٦١
ديكارت والفضيله	١٦٤
نهاية المطاف	١٦٩
فهـــرس الكتاب	١٧٠